الكتـاب الثالث

الفصل الأول

1- بعد النبذة العامّة الأولى التي عرضتها عن الجغرافيا، ينبغي عليّ أن أتحوّل الآن إلى وصف أجزاء المعمورة كلّ على حدة. وواقع الأمر هو أنني كنت قد تعهدت بأن أفعل هذا[1] وأزعم حتّى الآن، أني أسلك الطريق الصحيح إذ قسمت بحثي إلى أجزاء. ومرّة أخرى ينبغي البدء من أوروبا وأجزائها التي بدأت بها سابقاً[2]، ووفق الأسس عينها.

2- وكما فعلت سابقاً، فإن أوّل جزء من أوروبا، هو الجزء الغربي، وتحديداً إيبيريا. والقسم الأكبر من هذه، سكّانه قلّة نادرة. ويعيش السكّان في القسم الأكبر من البلاد في الجبال، والغابات، والسهول ذات التربة الفقيرة، زد إلى هذا أنها ليست مروية بصورة متماثلة. ومع تعرّج تكوينها الجغرافي، فإن إيبيريا الشمالية باردة جدّاً، وتقع على شواطئ المحيط، وهي علاوة على ذلك محرومة من التواصل مع البلدان الأخرى، الأمر الذي أكسبها طابع البلاد غير المضيافة، ولذلك فهي غير ملائمة أبداً للعيش. إن هذا هو طابع الجزء الشمالي من هذه البلاد؛ أمّا جزؤها الجنوبي، فهو على العكس تماماً، فأرضه كلّها تقريباً خصبة، خاصة في الجهة الأخرى من أعمدة هرقل. وسوف يتّضح هذا كلّه من الوصف التفصيلي للبلاد. ولكن يجب قبل ذلك أن نعطي وصفاً لشكلها وحجمها.

3- تشبه إيبيريا جلد الثور المشدود بالطول من الغرب نحو الشرق (تتّجه أجزاؤها الأمامية شرقاً)، وبالعرض من الشمال نحو الجنوب. ويبلغ طول البلاد حوالي 6000 مرحلة، وأقصى عرض لها 5000 مرحلة؛ وفي بعض الأماكن يتقلّص عرضها إلى أقل من 3000 مرحلة بكثير، خاصة عند البيرينيه التي تشكّل جانبها الشرقي. فهذه سلسلة جبلية متصلة تمتدّ من الجنوب إلى الشمال، وتفصل سلتيا عن إيبيريا. ولكن بما أن عرض سلتيا مثله مثل عرض إيبيريا، غير متماثل، فإن أضيق نقطة في كلّ من البلدين

بين بحرنا والمحيط، هي النقطة الأقرب إلى البيرينيه على جانبيّ هذه الجبال؛ فهي تشكّل خلجاناً عند المحيط وعند بحرنا أيضاً. وخلجان سلتيا (وهي تدعى أيضاً بالخلجان الغلاطية) أكثر رحابة، والبرزخ الذي تشكّله أضيق، مقارنة بالبرزخ الإيبيري[3]. وتشكّل البيرينيه الجهة الشرقية من إيبيريا؛ ويتشكّل جزؤها الجنوبي من بحرنا، من البيرينيه حتّى أعمدة هرقل والبحر الخارجي- من هذه النقطة حتّى ما يدعونها الرأس المقدّسة؛ أمّا جهتها الثالثة، الجهة الغربية، فهي تقريباً على موازاة البيرينيه وتمتدّ من الرأس المقدّسة حتّى الرأس الأرتابرية التي تدعى نيريوس؛ وتمتدّ جهتها الرابعة من رأس نيريوس حتّى الذيول الشمالية للبيرينيه.

4- بعد هذه المعطيات العامّة نتحوّل إلى وصف مناطق إيبيريا ابتداء من الرأس المقدّسة. وهذه الأخيرة هي أقصى نقطة غربية لا في أوروبا وحدها وحسب، بل في المعمورة كلّها، فالعالم المأهول ينتهي غرباً بهاتين القارّتين (رؤوس أوروبا وأطراف ليبيا تحديداً؛ ويشغل الإيبيريون منطقة من هاتين المنطقتين، بينما يشغل الماوروسيون المنطقة الأخرى)؛ ولكنّ أطراف إيبيريا تبرز عند الرأس المذكورة بما يقارب 1500 مرحلة. وعدّاك عن ذلك أن البلاد المجاورة لهذه الرأس، تدعى باللاتينية cuneus[4]. نظراً لشكلها الإسفيني. والرأس نفسها تبرز عميقاً في البحر، وقد شبهها أرتيميدور (الذي أكّد أنه زار هذا المكان) بالسفينة، وأضاف أنه ثمّة ثلاث جزر صغيرة تزيد هذا التشابه في الشكل: واحدة من هذه الجزر تشغل مكان مقدّمة السفينة، وتشغل الجزيرتان الأخريان اللتان تتوفّران على مراسي صغيرة للسفن، مكان العارضتين الملاحيتين. أمّا فيما يخصّ هرقل، فبحسب أرتيميدور، أنه ليس له أو لأيّ إله آخر معبد أو مذبح على هذه الرأس (كما أخبر إيثور خطأ)؛ وليس هناك سوى أكوام من الحجارة مبعثرة في أماكن مختلفة، يقلبها الزوار تبعاً للتقليد المتوارث، ثمّ يؤدّون طقس سكب الزيت عليها، ويحملونها عائدين. ولا يسمح بتقديم القرابين هنا، يضيف أرتيميدور، بل ولا يسمح بالصعود إلى هذا المكان ليلاً كما يقال، لأنّ الآلهة تمتلكه في هذا الوقت. ومع ذلك فإن الذين يأتون إلى هنا "للتأمّل"[5]، يقضون الليل في القرية المجاورة، ثمّ يصعدون نهاراً إلى الجبل حاملين معهم الماء، لأنه لا يوجد ماء على الجبل.

5- إن ما أكّده أرتيميدور مقبول بالحد الأدنى، ويمكن أن يوثق به، بيد أن ما رواه بمنطق الحشد الجماهيري العادي، لا يمكن الوثوق به في أيّ حال من الأحوال. وبحسب بوسيدونيوس أن الناس على سبيل المثال تقول، إن حجم قرص الشمس على ساحل المحيط وقت الغروب أكبر، وأن الشمس عندما تغرب تحدث صخباً كأن البحر يئزّ في الوقت الذي تنطفئ فيه بسبب غوصها في اللجّة البحرية. وبوسيدونيوس يقول، إن

هذا ليس صحيحاً، ومثله مثل قولهم إن الليل يهبط بعد غياب الشمس مباشرة؛ إن الليل لا يهبط هنا فعلاً إلاّ بعد غياب الشمس بقليل، تماماً مثلما يحدث عند البحار الكبيرة الأخرى. ثمّ يؤكّد أنه في الأماكن التي تغرب الشمس فيها وراء الجبال، يتواصل النهار بعد الغروب فترة أطول بسبب الأشعة المائلة؛ أمّا على ساحل المحيط فإن الأمر على الضدّ، إذ لا تحدث هنا فواصل مهمّة، لكنّ الظلام لا يهبط فجأة، لأنّ هذا يحدث على منبسطات كبيرة. أمّا فيما يخصّ التصوّرات العيانية عن حجم الشمس، فإن بوسيدونيوس يقول، إنها تزداد بدرجة واحدة لدى غروب الشمس وراء البحر وشروقها منه، ففي هذا الوقت تتصاعد من المياه كميات كبيرة من الأبخرة؛ وإذ تعبر أشعة الشمس هذه الأبخرة كأنها تمرّ عبر عدسة مقعّرة[6]، فإنها تتكسر[7]، الأمر الذي يجعل الأشكال المرئية تبدو أكبر حجماً. كما يحصل هذا على النحو عينه عندما تُرى الشمس الغاربة أو الشارقة، وكذلك القمر، عبر سحابة جافة خفيفة، في الوقت الذي تظهر النجمة فيه كأنها محمرّة. ويقول بوسيدونيوس، إنه أيقن بخداع البصر أثناء إقامته لثلاثين يوماً في غادير، إذ تسنى له أن يرقب مغيب الشمس. ومع ذلك فإن أرتيميدور يزعم أن الشمس الغاربة هناك أكبر بمئة مرّة عن شمس النهار، وأن الليل يهبط على حين غرة. بيد أنه لا يمكننا أن نتصوّر هذه الظاهرة على النحو الذي رآها فيه هو في منطقة الرأس المقدّسة إذا ما استمعنا بانتباه لما يقوله؛ فهو يقول: إنّ أحداً لا يصعد إلى هناك حتّى لدى غروب الشمس، إذا كان الليل يهبط على حين غرّة فعلاً. وهو لم يرصد هذه الظاهرة في مكان آخر على ساحل المحيط؛ فغادير تقع بالضبط على ساحل المحيط، ويشهد ضده بوسيدونيوس وبعض الآخرين.

6- إن الساحل المجاور للرأس المقدّسة في الغرب، يمثل بداية الجهة الغربية من إيبيريا وصولاً إلى مصبّ نهر تاغ، ويمثل في الجنوب بداية الجهة الجنوبية حتّى النهر الآخر، نهر آنا ومصبّه. وبداية النهرين في المناطق الشرقية؛ لكنّ نهر تاغ الأكبر بكثير من النهر الآخر، يجري نحو الغرب مباشرة، بينما ينعطف نهر آنا جنوباً ليفصل منطقة ما بين النهرين التي يسكن الشطر الأكبر منها السلتيون وبعض الموسيتانيين الذين هجّرهم الرومان إلى هنا من ضفّة نهر تاغ الأخرى. ويقطن عمق البلاد الكاربيتانيون، والأوريتانيون، وأعداد كبيرة من الفيتونيين. ولا تعدّ هذه البلاد بلاداً خصبة، لكنّ المنطقة المجاورة لها من الشرق والجنوب مباشرة، لا تقل عن أيّ منطقة أخرى في المعمورة من حيث خصوبتها، وتوفّرها على شتّى السلع التي تستخرج من الأرض والبحر. وهذه المنطقة التي يجري عبرها نهر بيتيوس، تبدأ من المنطقة عينها، حيث نهر آنا ونهر تاغ؛ ومن حيث حجمه يعدّ نهر بيتيوس وسطاً بين النهرين الآخرين. ومثله مثل نهر آنا، يجري

بيتيوس نحو الغرب أولاً ، ثمّ ينعطف جنوباً ليصبّ في المحيط على الشاطئ نفسه الذي يصبّ فيه نهر آنا. ومن اسم النهر أخذت البلاد اسمها: بيتيكا ، وأخذت من اسم السكّان اسمها الآخر: توردِيتانيا؛ فيطلق على سكّانها اسم التورديتانيين تارة ، والتوردواليين تارة أخرى، وثمّة كتّاب يرون فيهم شعباً واحداً ، بينما يرى فيهم آخرون شعبين مختلفين. ومن هؤلاء الأخيرين بوليبيوس الذي يزعم أن التوردواليين هم الجيران الشماليون للتورديتانيين، بيد أنه من غير الممكن أن تجد أيّ فرق بينهم الآن. ويعد التورديتانيون الأكثر ثقافة بين الإيبيريين؛ فهم يعرفون الكتابة ، ولديهم مؤلّفات في تاريخ قبيلتهم، ولديهم أيضاً قصائد ملحمية ، وقوانين مكتوبة شعراً (يقولون إن عمرها 6000 عام)[8]. ويعرف الإيبيريون الآخرون الكتابة أيضاً ، لكنّ أحرف الكتابة عندهم ليست واحدة، لأنّ اللغة نفسها ليست واحدة. وتقع تورديتانيا على هذا الجانب، وهي تمتدّ شرقاً حتّى أوريتانيا ، وجنوباً حتّى الساحل من مصبّ نهر آنا حتّى أعمدة هرقل. ومن الضروري وصف هذه البلاد والمناطق المجاورة لها بتفصيل أكثر، وبكلّ المعلومات التي تخصّ هذا الإقليم لكي نفهم موقعها الملائم وخصوبة أراضيها.

7- ويخترق المحيط الأطلسي هذا الساحل (بين المنطقة التي يصبّ فيها بيتيوس وآنا في المحيط، وحدود ماوروسيا) ويشكّل مضيقاً عند أعمدة هرقل يتّصل البحر الداخلي عبره بالبحر الخارجي. وعند هذا المضيق تحديداً ، في منطقة الإيبيريين الذين يدعون باستيتانيين (وهم الذين يدعونهم باستوليين أيضاً) ، يقع جبل كالبا. ومع أن محيط هذا الجبل لا يعدّ كبيراً ، إلاّ أنه جبل عال جدّاً يرتفع بحدّة بحيث يبدو من بعيد كأنه جزيرة. وإذا أبحرت من بحرنا إلى البحر الخارجي، فإن هذا الجبل يقع على جهة اليمين؛ وعلى بعد 40 مرحلة منه تقع مدينة كالبا التي كانت في زمن ما محطة لسفن الإيبيريين. ويزعم بعض الكتّاب، ومنهم تيموسفين، أن هرقل هو من أسس المدينة؛ ويخبر تموسفين بعد ذلك، أن المدينة كانت تدعى هيراقليا قديماً ، ولا يزال ظاهراً هناك سور المدينة الكبير، وترسانة إصلاح السفن.

8- وتأتي بعد ذلك مينلاريا ومنشآتها لتمليح الأسماك، ثمّ مدينة ونهر بيلون. ومن بيلون غالباً ما ينطلقون برحلات إلى تينغوس في ماوروسيا؛ وتوجد في بيلون مخازن تجارية ومؤسّسات لتمليح الأسماك. وفي زمن ما كانت تجاور مدينة تينغوس مدينة زيليوس، لكنّ الرومان نقلوا هذه الأخيرة إلى شاطئ إيبيريا المقابل وأخذوا معهم بعض سكّان تينغوس؛ كما أرسلوا إلى هناك مستعمريهم ودعوا المدينة الجديدة باسم يوليوس يوز. وتأتي بعد ذلك مدينة غادير، وهي جزيرة يفصلها مضيق صغير عن تورديتانيا ، وتبعد عن كالبا حوالي 750 مرحلة (وبعضهم يقول 800 مرحلة). ولا تختلف

obeikandl.com

هذه الجزيرة عن غيرها من الجزر في شيء، ولكنّها بفضل شجاعة سكّانها وبحارتها، وصداقتها مع الرومان حقّقت نجاحات وازدهاراً في كلّ شيء، ولذلك، مع أنها تقع على أطراف الأرض، إلا أنها تعدّ الجزيرة الأشهر بين الجزر كلّها. ولكنّني سوف أتحدّث عن غادير لدى وصفي للجزر الأخرى وليس الآن.

9- ويلي ذلك مرفأ مينيثييوس ومن ثمّ خور عند مدينة آستا ومدينة نابريسا (والخور هو منخفض تغمره المياه في أثناء المدّ البحري الأمر الذي يسمح بالصعود عبره، كما عبر النهر، إلى أعماق البلاد والمدن الواقعة على الساحل). ثمّ يأتي بعد ذلك مباشرة مصبّ بيتيوس المشطور إلى شطرين؛ وجزيرة يحيط بها مصبّان تشكّل ساحلاً امتداده مئة مرحلة، أو أكثر، بحسب بعضهم. وفي مكان ما هنا يقع مقرّ متنبّئ مينيثيوس وبرج سيبيون المبني على صخرة تحيط بها الأمواج من كلّ صوب؛ وقد بني هذا البرج بمهارة عالية تثير الدهشة (كالفاروس)[9]، وكان الغرض من بنائه، هو إنقاذ البحارة. فليست الترسبات التي يحملها النهر وحدها التي تشكّل مناطق مياه ضحلة، بل والمكان المواجه للبحر مزروع كلّه بحجارة القاع، ومن هنا جاءت ضرورة وجود علامة مرئية من مسافة بعيدة. وتبدأ من هنا طريق نحو الأعلى عبر نهر بيتيوس ومدينة إيبورا، ومعبد أرطميس حاملة النور[10] التي تدعى عندهم lux dubia[11]. ثمّ يتواصل الإبحار إلى الأعلى عبر أخوار أخرى، ويلي ذلك نهر آنا (بمصبّيه أيضاً)، والطريق المائية إلى عمق البلاد. وتأتي أخيراً الرأس المقدّسة التي تبعد عن غادير أقل من 2000 مرحلة. ولكنّ بعضهم يرى أن الرأس المقدّسة تبعد عن مصبّ نهر آنا 60 ميلاً، ومن هنا إلى مصبّ بيتيوس 100 ميل، ثمّ إلى غادير 70 ميلاً[12].

الفصل الثاني

1- وفوق ساحل البحر، على هذه الجهة من نهر آنا، تقع توردیتانيا التي يجري عبرها نهر بيتيوس. ويمثل نهر آنا حدود توردیتانيا في الشمال والغرب، بينما يمثلها في الشرق جزء من كاربيتانيا وأوريتانيا؛ وفي الجنوب [منطقة] الباستيتانيين الذين يقطنون الشريط الساحلي الضيق بين كالبا وغادير والبحر الواقع وراء هذا الشريط وصولاً إلى نهر آنا. ولكنّ الباستيتانيين الذين ذكرتهم الآن ينتمون إلى التورديتانيين، ومثلهم أيضاً الباستيتانيون الذين يسكنون وراء نهر آنا، وأكثر جيران هؤلاء الأخيرين. ولا يتجاوز امتداد هذه البلاد أكثر من 2000 مرحلة طولاً وعرضاً[1]. لكن فيها عدداً كبيراً جدّاً من المدن، ويقال إنه يصل إلى 200 مدينة. وبفضل علاقاته التجارية نال عدد من هذه المدن شهرة واسعة، وهي كلّها مدن تقع على ضفاف الأنهار، وعند الأخوار، وعلى

ساحل البحر. ومن أعظمها شأناً وقوّة، مدينة كوردوبا التي أسّسها مارسيللو، ومدينة الغاديتانيين التي اشتهرت بتجارتها البحرية، وانضمامها إلى الاتحاد الروماني، بينما اشتهرت كوردوبا بخصوبة تربتها وامتداد حدودها، ولم تكن أهمية نهر بيتيوس قليلة في هذا كلّه. وفي الأول استوطنت المدينة جماعات انتقاها الرومان من أبناء جلدتهم ومن السكّان المحلّيين؛ وعدّاك عن هذا أن كوردوبا كانت أوّل مستعمرة رومانية في هذه الأماكن. وتلي كوردوبا ومدينة الغاديتانيين شهرة، مدينة هسباليوس، وهي مستعمرة رومانية أيضاً؛ ولا تزال هذه المدينة حتّى الآن المركز التجاري للمنطقة، لكنّ بيتيوس فاقتها شرفاً إثر إسكان جنود قيصر فيها، مع أن عدد سكّان هذه الأخيرة ليس كبيراً جدّاً.

2- وبعد هذه المدن تأتي إيتاليكا وإيليبا (وهما تقعان على نهر بيتيوس)؛ أمّا مدينة أستيغيس[2] فهي تقع بعيداً عن النهر، وكذلك كارمون، وأوبولكون، وهناك عدّاك عنها، المدن التي هزم فيها ولدا بومبيوس: موندا، وأتيغوا، واورسون، وتوكيوس، وأوليا، وإيغوا[3]؛ وهذه المدن كلّها تقع غير بعيد عن كوردوبا. وغدت موندا إلى حدّ ما المدينة الرئيسة في هذه المنطقة؛ وتبعد موندا عن كارتيبا 1400 مرحلة، وإليها لجأ غنيوس بومبييوس بعد هزيمته[4]؛ ثمّ أبحر منها إلى منطقة جبلية ما عالية جدّاً عن البحر، وهناك قتل: أمّا شقيقه سيكستوس فقد فرّ من كوردوبا، وتابع حربه لبعض الوقت في إيبيريا، ثمّ أعلن انتفاضة في صقليا؛ وفرّ من هناك إلى آسيا، حيث وقع أسيراً لدى القائد انطونيو، وهلك في ميلتوس[5]. وأشهر المدن في منطقة السلتيين الإيبيريين، هي مدينة كونيستورغيوس؛ وأشهر مدن الأخوار مدينة آستا، حيث يجتمع عادة الغاديتانيون[6]؛ وتقع هذه المدينة على مسافة لا تزيد كثيراً عن مئة مرحلة فوق مرسى الجزيرة.

3- وتعدّ ضفاف نهر بيتيوس الأكثر كثافة سكّانية؛ فالنهر صالح للملاحة مسافة تقارب 1200 مرحلة من البحر حتّى كوردوبا والأماكن الواقعة إلى الأعلى قليلاً. زد إلى هذا أن وادي النهر وجزره الصغيرة مستثمرة استثماراً ممتازاً. وينبغي أن نضيف إلى هذا لوحة المكان الساحرة، لأنّ هذه المنطقة مزدانة بالحدائق، والبساتين، وشتّى أنواع النباتات. وبالنسبة لسفن الشحن الكبيرة، يعدّ النهر صالحاً للملاحة حتّى هسباليوس على امتداد 500 مرحلة، وصالحاً للملاحة بالنسبة لسفن الشحن الأقل حجماً، حتّى المدن الواقعة على مجرى النهر الأعلى وصولاً إلى مدينة إيليبا؛ أمّا إلى كوردوبا فيمكن الإبحار بالقوارب النهرية (وتصنع هذه الآن من ألواح خشبية، بينما كانت تصنع قديماً من جذع محفور واحد)، وبعد كوردوبا إلى فوق باتجاه

كاستالون، النهر غير صالح للملاحة. وعلى موازاة النهر تمتدّ نحو الشمال عدّة قمم جبلية تتلامس مع النهر أحياناً أكثر وأحياناً أقل؛ وتحتوي الجبال على كثير من المناجم. والفضّة هي الأكثر حضوراً في المناطق المحيطة بإيليبا وسيسابون، ولا نقصد هنا ما يسمّى سيسابون القديمة فقط، بل سيسابون الجديدة أيضاً؛ ويستخرجون من المكان المسمّى كوتيني[7]، النحاس والذهب معاً. وإذا ما صعدت مع النهر فإن هذه الجبال سوف تكون على يسارك، أمّا على الجهة اليمنى فيمتدّ سهل شاسع، مرتفع وشديد الخصوبة فيه شجر باسق ومراع بديعة. ونهر آنا صالح للملاحة بدوره، ولكن ليس للسفن الكبيرة جدّاً، وليس لمسافة كبيرة. وتقع إلى الأعلى من هذا النهر جبال غنية بالثروات الطبيعية؛ وتميل هذه الجبال نحو نهر تاغ. ومن المعروف أن الأماكن الغنية بالثروات الطبيعية يجب أن تكون أماكن صخرية قاحلة، كما هي الحال مثلاً عند كاربيتاني، والأماكن المجاورة لسلتيبيريا. وعلى هذا النحو أيضاً من حيث طابعها منطقة بيتوريا التي تمتدّ سهولها الجافة على طول ضفّتيّ آنا.

4- وتورديتانيا نفسها وهبتها الطبيعة ثروات مدهشة؛ وإذا كانت تنتج كثرة من مختلف أنواع السلع، فإن سهولة التصدير تضاعف من هذه الخيرات، لأنّ فائض السلع يمكن تسويقه بسهولة مع وجود أعداد كبيرة من السفن التجارية. وهذا ما تساعد عليه الأنهار، والأخوار التي كما أسلفت[8]، تؤدّي دور الأنهار، وهي صالحة للملاحة من البحر حتّى المدن الواقعة في عمق البلاد، ويمكن أن تبحر فيها حتّى السفن الكبيرة، لأنّ البلاد كلّها، وعلى امتداد كبير أعلى من الشاطئ الممتدّ بين الرأس المقدّسة وأعمدة هرقل، وهي تمثل منبسطاً من الأرض. وتوجد في كثير من الأماكن هنا خلجان بحرية تتّجه من البحر إلى عمق البلاد مسافة مراحل كثيرة، كما الثغور أو مجاري الأنهار. وفي أثناء المدّ البحري تمتلئ هذه الخلجان بمياه البحر، وتغدو كالأنهار يمكن الإبحار فيها مع التيار إلى الأعلى؛ لأنّ الإبحار فيها كالإبحار مع مجرى النهر إلى الأسفل؛ فبما أنه لا يوجد تيار مقابل، لذلك تجري مياه البحر بقوة دفع المدّ، كما يجري النهر. والمدّ على هذا الشاطئ أقوى منه في الأماكن الأخرى، لأنّ المياه البحرية الآتية من المحيط الكبير، تحصر هنا في المضيق الصغير الذي تشكّله ماوروسيا مع إيبيريا، فتواجه هناك عوائق، ثمّ بعد أن تتحرّر منها تنطلق إلى الأجزاء السفلى من القارّة. وبعض هذه الخلجان البحرية تغدو مياهه ضحلة في وقت الجزر (مع أنها لا تجفّ اليوم كلياً)، بينما يحتوي بعضها الآخر على جزر. وعلى هذا النحو أيضاً، الأخوار الواقعة بين الرأس المقدّسة وأعمدة هرقل، لأنّ المدّ هناك أكثر قوّة بالمقارنة مع الأماكن الأخرى والمدّ الأقوى هو بمعنى ما أكثر ملاءمة بالنسبة للبحارة؛ فهو ينشئ

أخواراً أكثر ويجعلها أطول، وصالحة للملاحة إلى مسافة تصل في غالب الأحيان إلى 100 مرحلة[9]، ولذلك فإن البلاد كلّها تغدو بشكل ما صالحة للملاحة، وملائمة لاستيراد البضائع وتصديرها. ولكنّ هذا ينجم عنه بعض العقبات: بسبب المدّ الشديد الذي يقاوم مجرى النهر بقوّة، يغدو الإبحار في الأنهار محفوفاً بمخاطر جدية، إن لدى النزول مع النهر أو لدى الصعود معه. كما يمثل الجزر في الأخوار خطراً بدوره؛ لأنّ الجزر يتراجع أيضاً بقوة تبعاً لقوّة المدّ، وليس نادراً أن تبقى السفن راسية في مياه ضحلة بسبب سرعة الجزر. وفي بعض الأحيان تجرف الأمواج القطعان التي يسوقونها إلى الجزر الواقعة أمام الأنهار أو الأخوار؛ وأحياناً ما تغدو تلك القطعان معزولة، فتحاول العودة، لكنّها تعجز عن ذلك وتهلك. ولكنّهم يقولون، إن الأبقار التي اعتادت على هذه الظاهرة، تبقى بانتظار تراجع البحر ثمّ تعبر إلى اليابسة.

5- وعلى أيّ حال بعد أن عرف الناس طبيعة هذه الأمكنة معرفة جيّدة، أدركوا أنه يمكن استخدام الأخوار كالأنهار، ولذلك بنوا هنا مدناً كالتي بنوها على ضفاف الأنهار. ومن هذه المدن آستا، ونابريسّا، واونوبا، واوسّونوبا، ومينوبا وبعض المدن الأخرى. ومن جهة أخرى فإن القنوات التي شقّت هنا وهناك، تساعد على هذا، لأنّ هناك أماكن كثيرة تنقل البضائع منها وإليها، ولا يتعلّق الأمر بتبادل السلع فقط، بل بتجارة خارجية تجري بين الدول. وتخالط المياه بعضها مع بعض عندما يسوق المدّ الأمواج إلى عمق البلاد، يشكّل فائدة بدوره، لأنّ المياه تفيض عبر البرازخ التي تشطر المجاري عادة، فتجعلها قابلة للملاحة، ولذلك يغدو الانتقال من الأنهار إلى الأخوار وبالعكس، ممكناً بالمراكب. لكنّ تجارة هذه البلاد كلّها مع إيطاليا وروما، لأنّ الإبحار حتّى أعمدة هرقل هيّن وجميل (ما خلا بعض الصعوبات لدى عبور المضيق)، ومثله الإبحار في عرض بحرنا. لأنّ الطرق البحرية تمرّ في منطقة الطقس الملائم، خاصة إذا سارت في عرض البحر. وهذا ما يخلق شروطاً ملائمة لسفن الشحن التجارية. فالرياح البحرية تهبّ في عرض البحر بدرجة محدّدة من الانتظام. وينبغي أن يضاف إلى هذا السلام الراهن أيضاً، لأنه منذ أن وضع حدّ للقرصنة البحرية، بات الملاّحون ينعمون بالأمن. ويقول بوسيدونيوس في هذا السياق، إنه قيّض له أن يلاحظ خاصية ما في أثناء عودته من إيبيريا؛ وعلى حدّ قوله أن الريح الشرقية في هذا البحر، وصولاً حتّى خليج سردينيا، تهبّ في وقت محدّد، ولذلك لم ينجح بالوصول إلى إيطاليا إلاّ بعد ثلاثة أشهر، لأنه ضلّ الطريق، وضاع عند الجزر الهيمنيسية وسردينيا، وعند مختلف أجزاء ليبيا الواقعة قبالة هذه الجزر.

6- وتصدّر توردیتانیا کمیات کبیرة من الأقماح، وزیت الزیتون العالي الجودة، والنبیذ. کما تصدّر أیضاً الشمع، والنحاس، والقطران، وکمیات کبیرة من الکیرمیس[10]، والدهانات التي لا تقلّ جودة عن تراب سینوبس[11]. ویبني التوردانیون سفنهم من الأخشاب المحلّیة؛ ولدیهم أیضاً الملح الصخري، وغیر قلیل من مصادر المیاه المالحة، ولتحضیر الأسماك المملّحة أهمیة کبیرة عندهم، ولا یقتصر هذا النشاط الاقتصادي لدیهم على معالجة الأسماك المحلّیة، إنّما یشمل أیضاً الأسماك التي یؤتى بها من سواحل أعمدة هرقل الأخرى؛ ولیست أسماکهم المملّحة هذه أقلّ جودة من الأسماك البونتیة. وفیما مضى کان یؤتى بکثیر من المنسوجات من توردیتانیا، أمّا الآن فإن أصواف بلون الغراب الأسود[12]، هي التي ترد منها أکثر. والحقیقة أن هذه الأصواف جمیلة جمالاً غیر عادي، وعلى أيّ حال فإنهم یشترون الأکباش هنا للتلقیح وتحسین النوع، حسب کلّ کبش.ویصنع سکّان سالاسیا منسوجات دقیقة بدیعة[13]. فتوردیتانیا غنیة بشتّى أنواع القطعان والطرائد. ولا یوجد هنا کثیر من الحیوانات المؤذیة، ما خلا الأرنب حفار التربة الذي یدعوه الآخرون أرنباً وحسب، لأنه یدمّر النباتات والبذور، إذ یأکل الجذور. إن هذه الحیوانات المؤذیة تنتشر في کلّ مکان من أرض إیبیریا وصولاً حتّى ماسالیا، کما تهدد الجزر أیضاً. ویروى أن سکّان جزر هیمنیسي أرسلوا یوماً مبعوثین إلى الرومان یطلبون منهم أن یمنحوهم مکاناً آخر للسکن، لأنّ هذه الحیوانات تجعل بقاءهم في البلاد مستحیلاً، وهم عاجزون عن مواجهة أعدادها المهولة. وغني عن البیان القول إنه ربّما تکون وسیلة الدفاع هذه ضروریة نظراً لخطورة العدوان المهلك (الذي لا یقع دائماً، إنّما لدى انتشار بلیّة شاملة، کوباء الأفاعي أو فئران الحقول)[14]؛ ولکن عندما تکون أعداد الأرانب غیر کبیرة، فإنهم یبتکرون بعض الطرائق لصیدها؛ فیربّون بنات عرس بریّة یأتون بها من لیبیا لهذه الغایة؛ إذ یلبسونها کمامات ویطلقونها في الأوکار، فتُخرج بنات عرس بمخالبها، الأرانب التي تصیدها، وترغم الأرانب الأخرى على أن تخرج إلى سطح الأرض، حیث یکون الصیادون بانتظارها عند مخارج الأوکار. لقد کانت توردیتانیا تصدّر کمیات مهولة من السلع، وهذا ما تبیّنه أحجام السفن وأعدادها؛ وحقیقة الأمر أن أکبر سفن الشحن تبحر من هذه البلاد إلى دیکیارخیا وأوستیا- میناء روما؛ ولا یقلّ عدد سفنهم عن عدد السفن اللیبیة تقریباً.

7- ومع أن المناطق الداخلیة من توردیتانیا تتمیّز بوفرة کبیرة، ولکنّ الساحل قد لا یکون أقلّ منها غنى بالسلع البحریة. فثمّة هنا شتّى أنواع المحار والرخویات، وبکمیات کبیرة، وهي تتمیّز بکبر أحجامها في مختلف أرجاء البحر الخارجي،

خاصة هنا، لأنّ حركة المدّ والجزر أقوى؛ ومن الواضح أن الاضطراب الذي تولده هذه الحركة هنا، هو سبب وجود هذا الكم الكبير والأحجام الكبيرة لهذه الحيوانات[15]. وعلى النحو عينه ينسحب الأمر على حيوانات جنس الحيتان كلّها: كركدن البحر، والحيتان التي تنتج شنب الحوت والحيتان التي تنفث التيارات؛ وعندما تطلق هذه الحيتان تياراتها، فإن المراقب من بعيد يظنّ أنه يرى أعمدة من السحب. ويبلغ الحنكليس البحري هنا أحجاماً مخيفة، تفوّق كثيراً أحجام حنكليسنا، وكذلك الأمر بالنسبة لمورينا وسواها من الأسماك الأخرى. ويروى أنه ثمّة عند كارتيبيا صدفات تدعى «غيرالدا»[16]، والقرمزية سعة الواحدة منها 10 كوتيلات[17]؛ وفي الأماكن الأبعد يصل وزن المورين والحنكليس البحري إلى أكثر من 80 ميناً[18]، ويصل وزن البوليب البحري إلى تالانت[19] واحد، وطول الأخطبوط[20] إلى ذراعين[21]، وما تبقى على التوالي. وتأتي إلى هنا من الشاطئ الآخر، من الشاطئ الممتدّ وراء أعمدة هرقل، كميات كبيرة من التونة السمينة الكثيرة الدهن. وتتغذى التونة على ثمار نوع ما من شجر البلوط الصغير الذي ينمو في قاع البحر ويعطي ثماراً كبيرة الحجم[22]. ولهذا الشجر حضور كثيف على اليابسة أيضاً في إيبيريا، ومع أن جذوره كبيرة كجذور شجر البلوط الكبير، إلاّ أنه لا يكبر أعلى من شجيرة صغيرة. وتعطي هذه الشجرة كمّاً من الثمر يملأ بعد نضجه شاطئيّ أعمدة هرقل يحمله المدّ إلى هنا. وعلى وجه العموم فإن الثمر الذي يصل إلى هذا الجانب من أعمدة هرقل، دائماً أصغر حجماً، ويعثر عليه بكميات كبيرة. وبحسب بوليبيوس، أن البحر يرمي بهذه الثمار إلى الشاطئ لتصل حتّى لاسيوم، هذا إذا كانت سردينيا والمناطق المجاورة، كما يقول، لا تنتج هذه الثمار. وبقدر ما تقترب التونّة من أعمدة هرقل آتية من البحر الخارجي، بقدر ما تغدو هزيلة بسبب شحّ القوت. بالتالي فإن هذا الحيوان بمثابة خنزير بحري، لأنه يحب الثمر ويسمن كثيراً من هذا الغذاء؛ وفي كلّ مرّة يعطي فيها البلوط البحري محصولاً وفيراً، تظهر أعداد كبيرة من أسماك التونّة.

8- ومع أن البلاد التي تحدّثنا عنها الآن وهبت هذه الثروات كلّها، لكن أكثر ما يجب أن نقرّ به وندهش، هو غناها بالمعادن الطبيعية. فبلاد الإيبيريين كلّها مليئة بها، بيد أنها ليست خصبة في كلّ مكان أو ثرية، خاصة في المناطق التي تحتوي على ثروات باطنية كثيرة. ونادراً ما تمتلك البلاد في إقليم واحد هذه الثروات وتلك معاً، وليس غالباً أن تملك البلاد نفسها على امتداد جغرافي محدود وفرة من شتّى أنواع المعادن. وفيما يخصّ توردیتانیا والمنطقة المجاورة لها، فإن من يريد أن يمتدح محاسنها المميّزة في هذا الميدان، فإنه لن يجد الكلام الكافي لذلك. وفي واقع الأمر أنه لم يعثر

حتّى الآن في أيّ مكان على الأرض، على هذا القدر من الذهب، والفضّة، والنحاس، والحديد في حالتها الطبيعية، وبهذه الجودة. فالذهب لا يستخرج في هذه البلاد من الأرض فقط، بل تجرفه مياه الأنهار أيضاً، أي أن الأنهار والجداول الجبلية تحمل الرمال المحمّلة بالذهب إلى مصبّاتها (مع أنهم غالباً ما يعثرون على الذهب في الأماكن الخالية من المياه)؛ ولكنّه غير باد هنا، أمّا في الأماكن المائية فإن الذرّات الذهبية تبرق بوضوح. عدّاك عن هذا فإن السكّان يستجرون المياه الجارية إلى الأماكن التي لا ماء فيها، فيغسلون بذلك الذرات ويظهرون بريقها؛ كما يستخرجون الذهب بحفرهم الآبار، ويبتكرون وسائل أخرى لغسيل الرمال؛ وما يسمّى الآن مغاسل الذهب، أكثر عدداً من مناجمه. والحقيقة أن الغلاطيين يرون أن مناجمهم التي في الجبال الكيمينية، وتلك الواقعة عند سفوح البيرينيه، تتساوى بإنتاج الذهب مع مناجم توردستانيا، لكنّ معدن توردیتانيا له قيمة أعلى. ويروى أنهم يعثرون بين ذرّات الذهب أحياناً على فلزات يصل وزن واحدتها إلى نصف باوند (وتدعى palae)[23]، ولا تحتاج إلاّ لبعض التنظيف. ويروون أيضاً إنهم يعثرون لدى شطر الحجارة على فلزات صغيرة شكلها يشبه شكل الحلمات. وبقايا المعدن المصهور والمنقّى باستخدام نوع من التراب المخمّر[24]، هي الإيليكتر[25]. وبعد عملية الصهر الثانية لهذا الإيليكتر الذي يحتوي على الفضّة والذهب، تحترق الفضّة ويبقى الذهب. فعيّنة السبيكة سرعان ما تنصهر، وهي تشبه الحجر[26]. ولذلك فإن الذهب ينصهر بصورة أفضل بنار القطران، لأنّ لهب القطران ضعيف، وهذا ملائم أكثر للمادّة الطيّعة للمعالجة والانصهار؛ أمّا لهب الفحم فإنه على الضدّ من هذا، يتلف كمية كبيرة من الذهب، لأنّ قوّته تصهر الذهب بشدّة وتبدّده على شكل بخار. ومن الينابيع والجداول يغترفون التربة التي تحتوي على الذهب، ثمّ يغسلونها على مقربة في مغاسل أو يحفرون آباراً يغسلون فيها التربة التي ترمى إلى السطح. أمّا أفران صهر الفضّة فيبنونها عالية لكي يصعد دخان الفلزات عالياً في الهواء، لأنّ هذا الدخان ثقيل ويودي بالحياة. وهناك بعض مناجم النحاس التي يدعونها ذهبية، ويستنتجون من هذا أن الذهب كان يستخرج في زمن ما منها.

9- لقد مدح بوسيدونيوس غنى هذه الفلزات ونوعيتها العالية، وهو لم يستطع أن يتخلّى في غضون ذلك عن بلاغته المعتادة، وليس هذا وحسب، إنّما كان مستعداً لأن يصدّق حتّى الروايات المبالغ فيها إلى درجة لا تصدّق. فعلى حدّ قوله مثلاً، إنه يسلّم تماماً بصحّة الحكاية التي تقول، إنه يوماً ما شبّ حريق في الغابات التي تتكوّن تربتها من خامات الذهب والفضّة، ولمّا انصهرت هذه، فارت وانبثقت إلى سطح الأرض؛ ولذلك يبدو كلّ جبل وتلّ كأنه كومة من سبائك مسكوكة أهالها قدر سخيّ.

وعلى حدّ قوله إن كلّ من يرى هذه الأماكن عليه أن يسلّم بأنّ هنا موقع الكنوز الأزلية التي تملكها الطبيعة، أو مخازن مملكة ما، لا تنضب كنوزها. فليست البلاد وحدها الثرية، كما يقول بوسيدونيوس، بل باطن أراضيها كذلك. ويقيناً، ليس هاديس هو الذي يقيم في العالم السفلي لبلاد التورديتانيين، بل بلوتون[27]. بهذا الأسلوب المزخرف يتحدّث بوسيدونيوس عن هذا، كأنه هو نفسه ينهل كلامه المسهب من منجم من مناجم هذه البلاد. ثمّ يسوق لنا ما قاله ديميتري الفاليري عن عمل عمال المناجم، فبحسب هذا الأخير أن عمال مناجم الفضّة الأتيكية[28]، يعملون بتفان لا مثيل له، كأنهم يريدون أن يخرجوا بلوتون نفسه من باطن الأرض. وعلى هذا النحو نفسه يصوّر بوسيدونيوس همة عمال المناجم التورديتانيين واجتهادهم، لأنهم يشقّون مناجم متعرّجة عميقة، وينزحون المياه التي تصادفهم هناك بوساطة المضخات الحلزونية المصرية[29]. ولكنّ النتيجة بحسب قوله، مختلفة دائماً لدى عمال المناجم هؤلاء وعمال المناجم الأتيكيين؛ فالحق يقال إن التعدين لدى هؤلاء الأخيرين يشبه اللغز: «ما يباشرون من أجله العمل، لا يحقّقونه، وما بين أيديهم يفقدونه»[30]؛ بيد أن حفر المناجم عمل ذو منفعة استثنائية، عند التورديتانيين، لأنّ $\frac{1}{4}$ الفلزات التي يستخرجها النحّاسون، هو نحاس خالص، وثمّة بين مالكي المناجم الخاصة من يستخرج في ثلاثة أيام تالانتا إيبياً[31] من الفضّة. ولكنّ القصدير بحسب قوله، لا يتواجد هنا على سطح الأرض كما يؤكّد المؤرّخون دائماً، بل يستخرجونه من الأعماق، كما يستخرج القصدير من بلاد البرابرة الذين يعيشون وراء لوسيتانيا، ومن جزر الكاسيتيريس؛ ويستوردونه من الجزر البريطانية إلى ماساليا. والتربة عند الأرتابريين الذين يعيشون في أقصى شمال غربي لوسيتانيا، تزدهر على حدّ قوله، بالفضّة، والقصدير و«الذهب الأبيض» (لأنه مختلط مع الفضّة). ويضيف بوسيدونيوس، أن هذه التربة تحملها الأنهار؛ فتأخذها النساء بالمجارف ويغسلنها في مصاف مجدولة على شكل سلال. إن هذا هو نوع المعلومات التي ينقلها بوسيدونيوس عن المناجم.

10- وإذ يشير بوليبيوس إلى مناجم الفضّة الواقعة عند قرطاجة الجديدة يقول، إنها كبيرة جدّاً. وهي تبعد حوالي 20 مرحلة، وامتداد دائرة مساحتها 400 مرحلة؛ ويعمل هناك دائماً 40.000 عامل كانوا يوردون إلى خزنة روما (في زمنه) 25.000 دراخما يومياً. أمّا فيما يخصّ عملية المعالجة، فإني أتجاهل وصفه لها تماماً (لأنه وصف طويل جدّاً)، ما عدا ما يقوله عن الفلزات التي تحتوي على الفضّة وتغسل في مياه الأنهار. فهم يهشمون هذه الفلزات ثمّ يمررونها في الماء عبر المصافي[32]؛ وبعد ذلك

يهشـمون مـا يترسـب ثانيـة ويرشـحونه مـرّة أخـرى بمزجـه بالمـاء ويفتتونـه؛ ثـمّ يصـهرون مـا يترسـب في المـرّة الخامسـة، وبعـد أن يُفصـل الرصـاص تتبقـى الفضـّة الخالصـة. ولا تـزال مناجم الفضّة موجودة حتّى أيامنا هذه، إلاّ أنها ليست ملكاً لدولة قرطاجة الجديدة، ولا لأي دولة أخرى، بل باتت ملكية فردية خاصة بأشخاص. أمّا مناجم الذهب، فإن أكثرها ملك للدولة المعنية. وثمّة في قشتالة وأماكن أخرى مناجم خاصة لاستخراج الرصاص؛ ويخالط هذا الرصاص قليل من الفضّة، لكنّهم لا يستخلصونها منه، لأنّ كمّيتها قليلة إلى درجة أنه ليس ثمّة جدوى اقتصادية من استخلاصها.

11- وغير بعيد عن قشتالة يقع جبل يقال إن نهر بيتيوس ينبع منه. ويدعون هذا الجبل بالجبل «الفضّي» لأنّ فيه مناجم فضّة. وبحسب بوليبيوس أن هذا النهر ونهر آنا ينبعان من سلتيبيريا، وأن واحدهما يبعد عن الآخر 900 مرحلة؛ ولمّا حقّق السلتيبيريون جبروتهم، أعطوا البلاد المجاورة كلّها اسمهم. وربّما دعا القدماء نهر بيتيوس باسم تارتيس، ودعوا غادير والجزر المجاورة باسم أريثيا. ولهذا السبب يظنّون أن ستيسيخوروس قال عن راعي ثيران[33] هيرون: إنه مولود.

قبالة أريثيا المجيدة، تقريباً
على مقربة من تارتيس، الذي لا حدّ لينابيعه،
التي تمدّ جذورها الفضية في وهدة الصخرة

(*مقطع* III، 208، *بيرغك*)

وبما أن للنهر مصبّين، فإنه كما يقولون، كانت تقوم فيما مضى على الأراضي الواقعة بينهما، مدينة كانت تدعى تارتيس، على اسم النهر، وتسمى البلاد التي يشغلها التوردواليون الآن تارتيسيديس. ويقول إيراتوسفين بعد ذلك، إن البلاد المجاورة لكالبا تدعى تارتيسيدس، وتدعى أريثيا «بالجزيرة السعيدة». وفي معارضته لإيراتوسفين، يزعم أرتيميدور أن ملاحظة إيراتوسفين الخاطئة الثانية هذه، تشبه الإشارة إلى أن المسافة من غادير إلى الرأس المقدّسة خمسة أيام إبحاراً (مع أنها لا تزيد على 1700 مرحلة)، وليس صحيحاً أيضاً ما قاله عن أن الجزر ينتهي عند الرأس المقدّسة، مع أن هذه الظاهرة منتشرة على امتداد المعمورة كلّها؛ ولا يتوافق مع الحقيقة كذلك، زعمه أن الأجزاء الشمالية من إيبيريا تشكّل طريقاً إلى سلتيا أسهل مما لو أبحرت إلى هناك في المحيط؛ وكل زعم آخر زعمه إيراتوسفين مستنداً إلى بيفيوس[34]، هو زعم خاطئ، لأنّ أقوال هذا الأخير ليست سوى ثرثرة لا معنى لها.

12- إن هوميروس، الرجل المعروف والواسع الإطلاع، يعطينا الأسس لنفترض

obeikandl.com

أنه كان على معرفة ممتازة بهذه المناطق مما رواه الآخرون، وهذا ما يتّضح إذا ما شئنا أن نستنتج استنتاجاً صحيحاً من معلومتين نقلهما عن هذه المناطق، احداهما أكثر مصداقية والأخرى أقلّ مصداقية. والخبر الأقلّ مصداقية، هو أن تارتيس كان معروفاً بالأقاويل[35]، «كأقصى نقطة في الغرب»، حيث يصبّ في المحيط، كما يقول هوميروس نفسه:

... شعلة الشمس المضيئة،

ترمي الليل الحالك على الأرض المثمرة.

(*الإلياذا* VIII، 485)

وكون الليل الحالك نذير شؤم وعلى صلة بهاديس، أمر واضح وضوح ارتباط هاديس بتارتاروس. وعلى هذا النحو يمكننا أن نفترض أن هوميروس إذ سمع عن تارتيس دعا أقصى بقاع المملكة السفلى تارتاروس، مشتقاً هذا الاسم من اسم تارتيس، فضمّ العنصر الميثولوجي، وبقي في الوقت نفسه أميناً لأسلوبه الشعري. وهذا ما فعله تماماً عندما علم أن الكيميريين استوطنوا المناطق الشمالية الحالكة حول البوسبور، فأسكنهم على مقربة من هاديس، مع أنه قد يكون فعل هذا بسبب بعض النفور الذي يكنّه الإيونيون على وجه العموم لهذه القبيلة: يروى فعلاً أن الكيميريين اجتاحوا البلاد في الزمن الهوميري ووصلوا إلى إيوليدا وإيونيا. ثمّ أنشأ الشّاعر بعد ذلك البلانكتس[36] على نمط الصخور الكيانية، مقتبساً أساطيره دائماً من وقائع تاريخية ما. فهو يروي على سبيل المثال، قصة ميثولوجية عن صخور خطرة يروى أنها كانت صخور الكيانيس (ولذلك دعيت هذه الصخور بصخور «السيمبليغادس»)، وعليه فقد نسب هوميروس إلى ياسون قصة الإبحار عبر هذه الصخور. كما أوحى له مضيق أعمدة هرقل ومضيق صقليا بأسطورة البلانكتس أمّا بخصوص الخبر الأقلّ مصداقية، فإننا نستطيع أن نستنتج من إشارات وردت في قصة تارتاروس التي ذكرت آنفاً، أن هوميروس قصد إلى المناطق المجاورة لتارتيس.

13- وفيما يتعلّق بالرأي الأكثر صحّة، فإننا نستطيع أن نستنتج عنه مما يلي: أولاً، إن حملات هرقل والفينيقيين (وقد وصلوا إلى إيبيريا)، ألهمت هوميروس تصوّراً عن شيء من الثراء والهناءة في حياة سكّان إيبيريا. والحق يقال إن هؤلاء القوم كانوا خاضعين لنفوذ الفينيقيين إلى درجة أن هؤلاء لا يزالون يعيشون في أكثر مدن توردیتانیا والمناطق المجاورة. ومن جهة أخرى يُهيأ لي أن حملة أوديسيوس (بما أن مسرحها كان في إيبيريا فعلاً، وقد عرف هوميروس عنها من خلال أسئلته الكثيرة التي كان يطرحها على العارفين)، أعطت هوميروس الحجة لكي ينقل أوديسيوس (كما كان قد نقل من

قبل الإلياذا) من أوساط الوقائع التاريخية إلى ميدان الشعر والاختلاق الميثولوجي المعتاد لدى الشعراء. ولكنّ آثار مثل هذه الأحداث ليست موجودة فقط في مناطق إيطاليّة وصقليّة وبعض المناطق الأخرى، بل هي موجودة أيضاً في إيبيريا حيث ثمّة مدينة تدعى أوديسيا، ومعبد لأثينا، وآلاف أخرى من آثار ترحال أوديسيوس والأبطال الآخرين بعد حرب طروادا. وقد تسبب هذا الترحال بكثير من الآلام للطراوديين المهزومين ولخصومهم المنتصرين على حدّ سواء (فلم يحقّق هؤلاء الأخيرون سوى نصر قدموس)[37]. فبما أن منازل الطرواديين تحوّلت إلى خراب، ولم يغنم الجنود الإغريق سوى القلّ القليل، لذلك اتّجه من بقي من الطرواديين والإغريق على قيد الحياة، إلى أعمال القرصنة البحرية؛ فقد لجأ الطرواديون إلى ممارسة هذا العمل لأنّ مدينتهم دمّرت تماماً، أمّا الإغريق فقد دفعهم الإحساس بالعار للجوء إلى القرصنة، فكل منهم كان يقول لنفسه:

بعيداً رحلت عن أهلي، ثمّ أعود إليهم لأركن خاملاً في البيت.

(*الإلياذا* II، 298)

لقد حملت إلينا الروايات قصص تيه إينياس، وأنتينور، والجينيتيين[38]، وكذلك تيه ديوميدس، ومنيلايوس، وأوديسيوس وكثير من الأبطال الآخرين. والحقيقة أن الشّاعر بعد أن سأل كثيرين وعرف عن تلك الحملات كلّها إلى أقصى أنحاء إيبيريا، وتعرّف إلى غنى هذه البلاد وميزاتها الأخرى، عن طريق ما رواه له الآخرون (لأن الفينيقيين تحدّثوا عن تلك الميزات)، اختلق وجود أرض النعيم والإيليزيه ووضّعهما هنا، وفي هذه الأرض سيقيم منيلايوس، بحسب قول بروتيوس:

إلى وراء حدود الأرض، إلى حقول الإيليزيه
سيرسلك الآلهة، إلى هناك حيث يعيش رادامانثوس الذهبي الشعر
(حيث تتوالى أيام الإنسان مضيئة من غير أسى،
حيث لا عواصف، ولا شآبيب، ولا صقيع في الشتاء،
حيث يهب زفيروس صاخباً صخباً لطيفاً، يبعث به المحيط
محملاً ببرودة ناعمة إلى المغبوطين هناك)

(*الأوذيسا* IV، 568 أو 563)

والحق يقال إن الهواء النقي وعبق نسمات زفيروس من سمات هذه البلاد، لا لأنها بلاد غربية فقط، بل لأنها دافئة أيضاً؛ وينطبق عليها أيضاً تعبير «وراء حدود الأرض»، حيث وضّعت الأسطورة هاديس، كما ذكرنا آنفاً. ويأتي ذكر رادامانثوس هنا ليشير إلى المكان القريب من مينوس، التي قال عنها الشاعر:

لقد رأيت في هاديس، مينوس الحكيم، ابن زيوس،

حاملاً الصولجان الذهبي بيمناه، وهو هناك يحاكم الموتى

(الأوذيسا XI، 568)

كما ردّد مثل هذه القصص شعراء آخرون أحدث عهداً، كقصة حملة هرقل بحثاً عن ثيران هيرون مثلاً، وحملته نفسه من أجل تفاحات الهسبيريدس الذهبية. وقد ذكر هؤلاء الشعراء جزر نعيم ما. ولا يزالون يذكرون حتّى الآن، أنها تقع غير بعيد عن أطراف ماوروسيا في مقابل غادير.

14- وكان الفينيقيون كما أرى، ممن أخذ هوميروس عنهم معلومات، فهؤلاء كانوا قد استولوا قبل زمن هوميروس، على أفضل أجزاء إيبيريا وليبيا، وبقيت سيطرتهم على هذه المناطق قائمة إلى أن دمّر الرومان دولتهم. وتؤكّد الحقائق الآتية على غنى إيبيريا: يقول المؤرّخون، إن القرطاجيين الذين شنّوا حملة على إيبيريا بقيادة باركا، وجدوا لدى القبائل في توردیتانیا معالف للحيوانات مصنوعة من الفضّة، وبراميل لخزن النبيذ مصنوعة منها أيضاً. وعليه فإنه يمكننا أن نظنّ أن السكّان المحلّيين، خاصة قادتهم، وصفوا «بطول العمر» بسبب الرخاء والوفرة اللذين كانوا يتوفّرون عليهما؛ ولهذا بالذات قال أناكريونت:

فيما يخصّني، فأنا لا ارغب في أمالثيا

ولا أروم قرناً،

ولا مئة عام وخمسين أخرى

أسود على تارتيس

(مقطع 81 بيرغك)

وقد دوّن هيرودوت حتّى اسم الملك، الذي دعاه أرغانثونيوس. ونحن يمكننا أن نفهم كلمات أناكريونت إمّا حرفياً، أي «الزمن الذي عاشه الملك»، وإمّا بمعنى أعمّ: «ولا أريد أن أحكم تارتيس زمناً طويلاً». ولكنّ بعضهم يرى أن تارتيس هي كارتيا المعاصرة(39).

15- وتضاف إلى رخاء البلاد هذا، رقّة أخلاق التورديتانيين وودّهم الاجتماعي، الأمر الذي نلاحظه وإن بدرجة أقل بحسب شهادة بوليبيوس، عند السلتيين، لأنّ أكثرهم يعيش في مستوطنات معزولة، أمّا هذه الدرجة من التشابه فسببها مجاورة السلتيين للتورديتانيين أو قرابتهم معهم. ولكنّ التورديتانيين، خاصة الذين يعيشون عند نهر بيتيوس، بدّلوا نمط عيشهم تبديلاً كاملاً وتحوّلوا إلى نمط العيش الروماني، بل لم يعودوا يتذكرون حتّى لغتهم الأمّ. لقد صار أكثرهم إلى مواطنين «لاتين»(40)

واستقبلوا عندهم المستعمرين الرومان، فتحوّل كلّهم تقريباً إلى رومان. ومدنهم الرئيسة الآن هي: باكس أغسطس في بلاد السلتيين، وأوغستا إيمريتا في بلاد التوردوليين، وقيصر أغسطس عند السلتيبيريين، وبعض المستوطنات الأخرى. وتُظهر هذه التسميات التبدل الذي حصل في أشكال الحياة المدنية المذكورة. عدّاك عن هذا أنّ كلّ الإيبيريين الذين ينتمون إلى هذه الطبقة يدعون togati [41]. وثمّة بينهم السلتيبيريون الذين عدوا في وقت ما، الأكثر همجية بين جميعهم. إن هذا هو كلّ ما لديّ من معلومات عن التورديتانيين.

الفصل الثالث

1- وإذا ما بدأنا العرض من الرأس المقدّسة ثانية سالكين الاتجاه الآخر على طول الساحل حتّى نهر تاغ، فسيظهر أمامنا الخليج أولاً، ثمّ رأس بارباريوس ومصبّ تاغ على مقربة، والمسافة حتّى هذه الثغور 10 مراحل[1]. وتوجد هنا أخوار أيضاً؛ أحدها يمتدّ أكثر من 400 مرحلة في داخل البلاد ابتداء من البرج[2] الذي ذكرناه آنفاً، ويروي هذا الخور البلاد وصولاً إلى سالاسيا. ويبلغ عرض نهر تاغ عند مصبّه ما يقارب 20 متراً، كما يصل عمقه أيضاً إلى هذا الحدّ، الأمر الذي يسمح لسفن الشحن الكبيرة أن تبحر إلى أعاليه. وفي وقت المدّ يشكّل النهر خورين في السهول الواقعة إلى الأعلى، فتغمر المياه مدى يصل امتداده إلى 150 مرحلة، وتجعل السهل صالحاً للملاحة؛ وفي الخور الأعلى تطوّق المياه جزيرة طولها حوالي 30 مرحلة وعرضها أقلّ من طولها بقليل، وفيها حدائق غنّاء وكروم من الأعناب. وتقع الجزيرة قبالة مدينة موررون الواقعة على هضبة قرب النهر، وعلى مسافة 500 مرحلة عن البحر، وقد جاء اختيار موقع هذه المدينة موفقاً جدّاً؛ فالأراضي حولها تتميّز بخصوبة شديدة، والملاحة في النهر إلى أعاليه ملائمة لمسافة طويلة حتّى بالنسبة للسفن الكبيرة؛ وما تبقى من امتداد النهر صالح لإبحار السفن النهرية فقط. وبعد مدينة موررون إلى الأعلى، النهر صالح للملاحة لمسافة أكبر. ومن الجدير ذكره، أن هذه المدينة شكّلت نقطة استناد لبروتوس الملقب بالكالايكي، عندما حارب اللوسيتانيين وأخضع هذه القبيلة. لقد حصّن بروتوس أوليسيبون، وبنى سدوداً نهرية لكي يضمن حرية الملاحة في أعالي النهر ويؤمّن نقل التموين؛ ولذلك فإن هذه المدينة هي الأقوى بين مدن نهر تاغ. ونهر تاغ نفسه نهر غني بالأسماك والمحار. وهو ينبع من سلتيبيريا ويجري عبر فيتونيا، وكاربيتانيا، ولوسيتانيا نحو الغرب المعتدل حتّى نقطة محدّدة، على موازاة نهر آنا وبيتيوس، وبعد ذلك ينعطف عنهما لأنهما بدورهما ينعطفان نحو الساحل الغربي.

2- ومن الأقوام التي تقطن وراء الجبال التي ذكرناها آنفاً[3]، يشغل الأوريتانيون الموقع الأقصى جنوباً: تمتدّ أراضيهم جزئياً حتّى ساحل أعمدة هرقل من هذه الجهة. وإلى الشمال منهم يقطن الكاربيتانيون، ثمّ الفيتونيون والفاكيون الذين يجري نهر دوريوس عبر بلادهم، وثمّة عند أكوتيا، وهي مدينة الفاكيين، معبر عبر هذا النهر؛ وأخيراً يأتي الكالايكيون الذين يشغلون شطراً كبيراً من البلاد الجبلية. ولهذا السبب، وبما أن قتال هؤلاء كان أمراً صعباً جدّاً، فقد لقّب قاهر اللوسيتانيين بالكالايكي، بل لا يزال أكثر اللوسيتانيين يدعون حتّى الآن بالكالايكيين. وأكثر المدن جبروتاً في أوريتانيا، هما مدينتا، كاستالون، وأوريا.

3- وتقع لوسيتانيا إلى الشمال من نهر تاغ، وتعدّ هذه أكبر القبائل الإيبيرية التي طالت حروب الرومان معها أكثر من أي قبيلة أخرى. ويحدّ الشطر الجنوبي من هذه البلاد، نهر تاغ، بينما يحدّها المحيط من الغرب والشمال، وتتجاور من جهة الشرق مع مناطق الكاربيتانيين، والفيتونيين، والفاكيين، والكالايكيين، وهي قبائل معروفة لنا. أمّا القبائل الأخرى فهي قبائل لا تستحق أن تذكر، لأنها قبائل لا أهمية لها ولا تحظى بأيّ شهرة. وعلى الضدّ مما اعتاد عليه معاصرونا، فإن بعضهم يدعو هذه القبائل قبائل لوسيتانية. وللكالايكيين في مناطقهم الشرقية حدود مشتركة مع القبائل الأستورية، والسلتيبيرية، أمّا في المناطق الأخرى فإن جيرانهم هم السلتيبيريون فقط. ويبلغ طول لوسيتانيا حتّى رأس نيريبيوس 3000 مرحلة، أمّا عرضها (الذي تشكّله الجهة الشرقية حتّى الشاطئ المقابل)، فهو أقلّ بكثير. والجهة الشرقية مرتفعة وغير مستوية، أمّا المنطقة الواقعة إلى الأسفل وصولاً حتّى البحر، فهي منطقة مستوية، ما خلا بعض الجبال الصغيرة. ولهذا السبب، بحسب بوسيدونيوس، أخطأ أرسطو إذ عدّ أن سبب المدّ والجزر يكمن هنا في خاصيات ساحل إيبيريا وماوروسيا. فأرسطو رأى أن المدّ والجزر البحريين يحصلان هنا لأنّ الأراضي الساحلية مرتفعة وصخرية، فهي تقاوم الأمواج بعناد وتقذف بها باندفاع متساو. وقد أصاب بوسيدونيوس إذ قال، إن القسم الأكبر من الساحل هنا رملي ومنخفض.

4- إن البلاد التي أتحدّث عنها بلاد خصبة، تجري عبرها أنهار كبيرة وصغيرة، وكلّها يجري من جهة الشرق بموازاة نهر تاغ؛ وأكثر الأنهار متشابه، فهي تحتوي على كميات كبيرة من الرمال الذهبية. وأشهر هذه الأنهار بعد نهر تاغ مباشرة، نهر موندا ونهر فاكوا، وهما نهران متشابهان لمسافة صغيرة فقط. ويأتي بعد هذين النهرين، نهر دوريوس الذي يبدأ بعيداً ويجري على مقربة من نومانسيا وكثير من المستوطنات الأخرى التي يقطنها السلتيبيريون والفاكيون؛ وهذا النهر صالح لإبحار السفن الكبيرة

مسافة 800 مرحلة. ثمّ تأتي بعده الأنهار الأخرى، ويليها نهر ليتا[4]، الذي يدعوه بعضهم ليميوس، أو بيليون[5]؛ ويجري هذا النهر من بلاد السلتيبيريين والفاكيين، مثله في هذا مثل النهر الذي يليه، والمقصود هنا نهر بينيوس (وبحسب آخرين، نهر مينيوس)، وهو أكبر أنهار لوسيتانيا، وهو بدوره صالح للملاحة مسافة 800 مرحلة. ويؤكّد بوسيدونيوس أن نهر بينيوس ينبع من كانتابريا. وتقع أمام مصبّه جزيرة وحاجزان لصدّ الأمواج فيهما محطتان لرسوّ السفن. والحقيقة أن خاصيات طبيعة هذه الأنهار، تستحقّ الثناء، لأنّ لها ضفافاً عالية، فهي مهيّأة لاستضافة البحر في مجاريها أثناء المدّ العالي، من غير أن يفيض ماؤها إلى خارج الضفاف ويغرق السهول. وعلى أيّ حال، فقد كان هذا النهر هو آخر نقطة وصلت إليها حملة بروتوس، مع أنه ثمّة بعد ذلك أنهار أخرى موازية للأنهار المذكورة.

5- والأكثر بعداً [من اللوسيتانيين]، هم الأرتابريون الذين يعيشون بجوار الرأس التي تدعى رأس نيرييوس، وهي تشكّل حدّ الشطرين الغربي والشمالي من إيبيريا. وتقطن المنطقة المحيطة بالرأس قبيلة سلتية تربطها صلات القرابة بالشعوب التي تقطن حوض نهر آنا. ويقولون إن هذه القبيلة شنّت مع التوردواليين حملة على تلك المناطق، إلاّ أنها ما لبثت أن اختلفت معهم فور عبور الحملة نهر ليمييا؛ وعندما فقد السلتيون قائدهم بعد الخلاف، تشتت شملهم وأقاموا حيث هم الآن؛ ومن هنا سمّي نهر ليمييا باسم ليتا. وللأرتابريين مدن ذات كثافة سكّانية عالية، تقع على الخليج الذي دعاه البحارة الذين غالباً ما يؤمّون هذه الأماكن، ميناء الأرتابريين. ويدعى الأرتابريون الآن بالأروتريبيين. وعلى أيّ حال فإن ما يقارب 30 من مختلف القبائل، تستوطن المنطقة الواقعة بين تاغ والأرتابريين. ومع أن البلاد كانت غنية بالثمار والقطعان، وتملك وفرة من الذهب، والفضّة والمعادن الأخرى، إلاّ أن أكثر السكّان استهجن العيش على إنتاج الأرض والتفت إلى أعمال السلب والنهب، فخاض بعضهم ضدّ بعض حروباً متواصلة، كما حاربوا أيضاً جيرانهم القاطنين وراء نهر تاغ، إلى أن ردعهم الرومان. لقد حطم الرومان غطرستهم، وحوّلوا أكثر مدنهم إلى قرى بسيطة لا أهمية لها، لكنّهم حسّنوا بعض المدن وطوّروها وأسكنوا فيها مستعمرين رومان. وكان سكّان الجبال أوّل من عاث فساداً، وهذا أمر طبيعي، فهؤلاء يقطنون أرضاً قاحلة، ولا يملكون شروى نقير. ولذلك أخذوا يستولون على أرزاق الآخرين. ولمواجهة سكّان الجبال كان الناس مرغمين على أن يتركوا أشغالهم الخاصة، فبدلاً من العمل بالزراعة شرعوا يقاتلون؛ وكانت النتيجة هي ترك الأرض التي فقدت خيراتها الطبيعية وتحوّلت إلى مأوى لقطاع الطرق.

6- والحقيقة أن اللوسيتانيين، كما يقال، أناس مهرة في تنظيم الحصار،

وملاحقة العدوّ؛ فهم حاذقون، ورشيقون، ويتميّزون بقدرتهم العالية على المناورة أثناء القتال. ويحملون تروساً مجوّفة من الداخل وبارزة إلى الأمام قليلاً، قطر واحدها قدمان، تعلّق على اليد بأحزمة (لأنه ليس لها طارات ولا مماسك). وإضافة إلى هذا الترس يتسلح اللوسيتانيون بخناجر أو سكاكين ويرتدي أكثرهم دروعاً كتّانية، ولدى بعضهم فقط دروع مزرّدة، وخوذ بثلاث ريشات، أمّا الآخرون فيحملون خوذاً من الأوتار. ويرتدي الجنود المشاة بدورهم أطماقاً، ولدى كلّ مقاتل عدد من المزاريق؛ ولديهم رماح حرابها نحاسية. ويقال، إن بعض القبائل التي تقيم عند نهر دوريوس تعيش حياة وفق النمط اللاكوني: يدخلون مرتين في اليوم حجر التدليك بالزيت، يستحمون بعدها في حمامات بخارية تسخّن بحجارة متوهّجة، ثمّ يغتسلون بالماء البارد، ولا يأكلون إلاّ الدقيق كلّ يوم، ويراعون قواعد النظافة، ويلتزمون بالعفّة والتواضع. ويستحسن اللوسيتانيون تقديم القرابين، ويتفحصون أحشاء حيوانات الأضاحي من غير أن يقطّعوها؛ ويتفحّصون إضافة إلى ذلك عروق جنب الأضحية وينجّمون عن طريق لمسها. ولديهم أيضاً عادة التنجيم بأحشاء الأسرى، الذين يغطونهم أولاً بالأردية، ثمّ عندما يطعن الكاهن المنجّم الضحية في أحشائها، ينجّمون قبل كلّ شيء بكيفية سقوط جسد الضحية. ويقطعون اليد اليمنى للأسير ليقدّموها قرباناً للآلهة.

7- ويعيش سكّان الجبال كلّهم حياة بسيطة، فيشربون الماء، وينامون على الأرض، شعر رؤوسهم طويل مضفور ضفائر طويلة كالنساء؛ لكنّهم أثناء القتال يربطونه حول الجبين. غذاؤهم الأساس، هو لحم الماعز، وقربانهم للإله أريس جدي، وأسرى، وجياد؛ وبحسب العادة الإغريقية، فإن كلّ عشيرة تضحّي بمئة ثور.

ويقيم هؤلاء مباريات في المصارعة، والجري، والرمي، وقتال الأرتال، يشارك فيها المشاة الخفيفة، والمشاة الثقيلة، والفرسان. ويعيش سكّان الجبال ثلثي السنة على ثمار البلوط التي يجففونها ويهشمونها ثمّ يطحنونها؛ ويصنعون من طحينها خبزاً يخزنونه لفترة طويلة. كما يشربون الجعّة المصنوعة من الشعير؛ أمّا النبيذ فلديهم فيه نقص؛ إذ سرعان ما يستهلكون الكمية التي يصنعونها منه في الاحتفالات التي يقيمونها مع الأقارب والأصدقاء؛ ويحلّ السمن البقري عندهم محلّ زيت الزيتون. ويتناولون وجباتهم وهم جالسون على مقاعد مبنية لصق جدران الحجر، ويجلسون وفق تدرّج السن والمكانة. فهم يجلسون للغداء دائرة يدور الطعام عندهم وفقها؛ ثمّ يتناولون الشراب وهم يرقصون على أنغام المزمار والبوق، فيدورون في حلبة الرقص مجموعات، ويقفزون ويهبطون. وفي باستيتانيا ترقص النسوة بين الرجال إذ يمسك بعضهم بأيدي بعض. ويرتدي الرجال كلّهم هنا ثياباً سوداء اللون، أكثرهم يرتدي معاطف، وفي هذه

المعاطف ينامون على الفرش المحشية بالنباتات اليابسة. ويستخدمون الأواني المصنوعة من الشمع[6]، كما يفعل السلتيون. وترتدي النسوة دائماً ملابس طويلة وفساتين ملوّنة. ويتعامل السكّان هنا (في أقلّ تقدير من يعيش منهم في أعماق البلاد) بالتبادل العيني بدلاً من المسكوكات النقدية، أو يقطعون قطعاً من فضّة مشغولة ويستخدمونها بدلاً من العملة النقدية. ويرمى بالمحكومين بالإعدام من فوق صخرة عالية إلى قاع هاوية، أمّا من يقتل والده فيقتل رجماً بالحجارة وراء الجبال أو الأنهار[7]. ويجري عقد القران عندهم كما هو معمول به عند الإغريق. وهم يخرجون مرضاهم إلى الطرقات. كما كانت العادة عند المصريين القدماء[8]، طلباً لمشورة من كان قد عانى من مثل هذا المرض. وكانت لا تزال عندهم حتّى زمن بروتوس قوارب جلدية يستخدمونها وقت المدّ وفي المياه الضحلة، أمّا الآن فحتّى العوامات نادرة الوجود عندهم. والملح الصخري هنا لونه أرجواني، وإذا ما سحن يتحوّل إلى اللون الأبيض. ذلكم هو نمط عيش سكّان الجبال، وأنا أقصد إلى تلك المناطق التي تجاور الجهة الشمالية من إيبيريا، وعلى وجه التحديد الكالايكيين، والأستوريين، والكونتابريين حتّى [مناطق] الفاسكونيين، والبيرينيه؛ فهؤلاء كلّهم يديرون نمط عيش متماثل. وأنا أحجم عن ذكر كثير من الأسماء تفادياً لعبء تدوينها، فهل هناك من يستمتع بسماع أسماء مثل البليفتافريين، والبارديتيين، والألّوتريغيين وسوى ذلك من أسماء الجماعات الأقل أهمية وأقلّ شهرة حتّى من هؤلاء.

8- وليست قوّة الشكيمة والهمجية اللتان تتّصف بهما هذه الأقوام، ناجمة فقط عن الحروب وحياة التنقّل، بل أيضاً عن نأي المناطق التي يقطنونها، وواقع الحال فعلاً، هو أن الرحلة إلى بلادهم بحراً أو براً، تستغرق زمناً طويلاً، وبما أن التواصل معهم صعب، لذلك فقدوا الألفة والود والرفق الإنساني. ولكنّ هذه العيوب أقلّ حضوراً في سلوكهم الآن، بفضل حالة السلام ومجيء الرومان إلى بلادهم. بيد أن القبائل الأقلّ تواصلاً مع الرومان، تتميّز بقدر أكبر من العنف والوحشية، وإذا كانت مثل هذه السمات المكروهة ناجمة لدى بعض القبائل عن فقر بلدانها وشحّ وسائل عيشها، فإن هذه الأخلاقيات حاضرة في سلوك سكّان الجبال بدرجة أعلى. بيد أن الحرب توقفت تماماً الآن، لأنّ أغسطس قيصر أخضع الكونتابريين (الذين لا يزالون حتّى الآن يحافظون على عصاباتهم المنظمة)، وجيرانهم نهائياً؛ وبدلاً من أن يشنّوا غزوات لنهب حلفاء روما، فإن الكونتابريين، والكونياكيين[9]، والبلينتوسيين[10] (الذين يعيشون عند منابع إيبير)، يقاتلون الآن مع الرومان. ولحماية هذه المناطق، أرسل طيباريوس، خليفة قيصر، ثلاثة فيالق عسكرية (كان أغسطس قيصر قد أعدها لهذه المهمّة)،

وقد نجح في تحويل بعض هذه القبائل إلى قبائل مسالمة، بل متحضّرة أيضاً.

الفصل الرابع

1- وما تبقى من إيبيريا، أي ساحل بحرنا من أعمدة هرقل حتّى جبال البيرينيه، وكذلك كلّ المناطق الداخلية فوقها، عرضه متباين، وطوله أكثر من 4000 مرحلة بقليل؛ ومع ذلك فإن الساحل كما يقولون، أطول بألفيّ مرحلة. ويقولون، إن المسافة من كالبا، وهي جبال تقع قرب أعمدة هرقل، حتّى قرطاجة الجديدة 2200 مرحلة. ويعيش على هذا الساحل الباستيتانيون (ويدعون أيضاً بالباستولانيين)، وإلى حدّ ما الأوريتانيون؛ والمسافة من هنا حتّى إيبير تساوي هذا الرقم نفسه تقريباً، ويشغل هذا الساحل الإيديتانيون؛ وعلى هذه الجهة من إيبير حتّى البيرينيه ونصب نصر بومبيوس[1]، تبلغ المسافة 1600 مرحلة. ويعيش هنا عدد قليل من الإيديتانيين، أمّا ما تبقى من المنطقة فيشغله قوم يدعونهم الإينديكاتيين، وينقسم هؤلاء إلى أربع جماعات.

2- وإذا بدأ عرضنا من جبل كالبا على وجه التحديد، فسوف نرى سلسلة جبلية داخل أراضي باستيتانيا وأوريتانيا، مكسوّة بغابات كثيفة شجرها باسق، وهي تفصل الساحل عن الأجزاء الداخلية من البلاد. وتوجد في كثير من الأماكن هنا، مناجم يستخرجون منها الذهب ومعادن أخرى. والمدينة الأولى على هذا الساحل، هي ملقّا الواقعة على مسافة واحدة من مدينتيّ كالبا وغادير. وهذه في الوقت الراهن محطّة للرحّل على ساحل ليبيا المقابل؛ وتوجد هناك أيضاً قاعات كبيرة لتمليح الأسماك. ويدغم بعضهم هذه المدينة بمدينة ميناكا التي تقع كما نعرف، أبعد من كلّ المدن الثوكية باتجاه الغرب، لكنّ هذا الإدغام غير صحيح. فميناكا على الضدّ من هذا، تقع بعد كالبا، وهي الآن أطلال، على الرغم من أنها لا تزال تحافظ على آثار المدينة الإغريقية، بينما ملقّا أقرب بكثير، وهي من حيث مظهرها الخارجي مدينة فينيقية. ثمّ تأتي بعدها مدينة الإيكسيتانيين[2]، التي منحت الأسماك المملّحة اسمها.

3- وتأتي بعد هذه المدينة مدينة أبديرا، وهي مدينة أسّسها الفينيقيون أيضاً. وثمّة فوق هذه المنطقة، في البلاد الجبلية مدينة تدعى أوديسيا فيها معبد لأثينا، كما يؤكّد بوسيدونيوس، وأرتيميدور، وإسكليبيادس الميرلي (وكان هذا يدرّس أصول النحو في توردیتانيا، وأصدر وصفاً لقبائل هذه المنطقة). ويقول إسكليبيادس، إن معبد أثينا فيه تروس ومقدّمات سفن تخلّد ذكرى ترحال أوديسيوس، وإن بعض من شاركوا في الحملة مع تيفكروس قد استوطنوا في بلاد الكالايكيين، وكانت هناك مدينتان: حملت إحداهما اسم هللينا[3]، والأخرى اسم أمفيلوخي[4]، لأنّ أمفيلوخ نفسه توفى

هنـاك، ولأن مرافقيـه في رحلـة التيـه توغلـوا إلى أعمـاق البـلاد. ويواصـل إسـكليبيادس روايته فيقول: ويروى أن بعضاً من مرافقي هرقـل، ومهـاجرين مـن ميسـينا قـد اسـتوطنوا في إيبيريا. أمّا بخصـوص كانتابريا فبحسـب روايـة إسـكليبيادس وكتّـاب آخـرين، أن اللاكـونيين شـغلوا جـزءاً منهـا. ويـذكرون هنـا أيضـاً مدينـة أوبسـيكيلاّ الـتي أسّسـها أوكيلوس الـذي توجّـه إلى إيطاليـا مـع أنتينـور وأبنائـه. وفيمـا يخـصّ ليبيـا، فـإن بعضـهم يعتقد استناداً إلى روايات تجار غادير، كما يقول أرتيميدور، إن القبائـل الـتي تعيش في الجانـب الآخـر مـن ماوروسـيا، علـى مقربـة مـن الإثيـوبيين الغـربيين، تـدعى بالقبائـل اللوتوفاغيّة، لأنّ هـؤلاء يـأكلون اللوتـوس (نبـات مـا، وجـذر)، فـلا يحتـاجون في غضـون ذلـك إلى أن يشـربوا المـاء، أو لا يتـوفّر لـديهم بسـبب شـحّه، مـع أن بلادهـم تمتـدّ حتّـى المناطق الواقعة وراء قورينا. وهنـاك قبيلة أخرى تدعى قبيلة اللوتوفـاغيين، ويعيش هـؤلاء في واحدة من الجزر الواقعة قبالة سرت الصغرى، وتحديداً في مينينغ.

4- ولـذلك فإنـه لـيس غريبـاً البتّـة إذا مـا أنشـأ الشّـاعر أسـطورة عـن ترحـال أوديسيوس على نحو جعل فيه القسم الأعظم مما رواه عـن أوديسـيوس مـن قصـص تـدور أحداثه في البحـر الأطلنطي وراء أعمدة هـرقل، لأنّ القصص مرتبطة بالوقائع ذات الصلة بالأماكن كما أنها مرتبطة بـالقرائن الأخـرى الـتي ابتكـرتها مخيّلـة الشـاعر، ارتباطـاً وثيقاً جعله يجعل ممـا اختلقـه شيئاً يشبه الحقيقـة؛ ولـيس ثمّـة مـا يثير الاستغراب في أن بعض الناس صدّق هذه القصص نفسها وأقرّ بسعة علم الشاعر، فوضـع شـعر هـوميروس أساساً لأبحاثه العلمية، كما فعل كراتيت المالوسي وبعض الآخـرين مـثلاً. ولكـنّ ثمّـة آخرون سلكوا سلوكاً معاكساً تماماً، فرفضوا مثـل هـذه المحـاولات وأقصـوا الشّـاعر (كأنه فلاح بسيط أو حصّاد ساذج) عن ميدان العلم هـذا كلّـه، بـل ووصـموا كـلّ مـن نحا إلى حلّ مثل هذه المسائل العلمية، بالبلاهة. ولم يجـرؤ أيّ مـن علمـاء النحـو أو علمـاء التخصصات الأخرى أن يتصدى، أو يصـحح أو يقـوم بـأيّ فعـل مشـابه حيـال مـزاعم مثـل هؤلاء الناس. بيد أنه يهيّأ لي في أقلّ تقدير، أنه ليس ثمّة إمكانية للتصـدي فقـط، إنّمـا يمكـن أيضاً تصحيح كثير من مزاعم هـؤلاء، وعلـى وجـه الخصـوص كـلّ مـا ضـلّل بـه بيفيـوس النـاس الـذين بسـبب جهلـهم بالمنـاطق الغربيـة والشـرقية علـى امتـداد سـاحل المحيط، صدّقوه. لكنّنا نترك هذه المسألة. لأنها تتطلّب بحثاً خاصاً وطويلاً.

5- ويمكـن أن نـرى سـبب ترحـال الإغريـق بـين القبائـل البربريـة، في تبعثـر هـؤلاء إلى أجزاء صغيرة وملكيـات مسـتقلّة تشـتتت بسـبب معانـدة بعضـها بعـض؛ ومـن هنـا جـاء عجزها عن مواجهة الوافدين مـن الخـارج. وقـد جمحـت روح المعانـدة هـذه عنـد الإيبيريين

على وجه الخصوص، لأنّ هذه القبيلة جمعت إلى العناد طبيعة الغدر والغطرسة. ومن نمط العيش هذا، اكتسب هؤلاء نزوعهم إلى غزو جيرانهم ونهب أرزاقهم؛ ولكنّهم لم يقدّموا إلاّ على عمليات هزيلة لا أهمية لها، لأنهم لم يحشدوا يوماً أي قوات كبيرة، ولم يشكّلوا اتحادات. وغني عن البيان القول إنهم لو نجحوا في توحيد قواهم وقاتلوا جنباً إلى جنب، لما استطاع القرطاجيون مهاجمهتم بقوات متفوّقة والسيطرة على الشطر الأكبر من بلادهم، وهذا ما كان قد فعله قبل القرطاجيين، التيريسيون، ثمّ السلتيون الذين يدعون الآن بالسلتيبيريين، والفيرونيين؛ ثانياً، لما تجرّأ عليهم أيضاً قاطع الطرق، الأتامان فيرياف، ولاسرتوريوس بعد ذلك، عدّاك أن أشخاصاً آخرين كانوا يسعون إلى امتلاك سلطة أقوى. أمّا الرومان الذين خاضوا حروباً ضدّ أجزاء إيبيريا المبعثرة، وأخضعوها منطقة منطقة، فقد صرفوا زمناً طويلاً قبل أن يتمكنوا من فرض سيطرتهم على البلاد، لأنه كان عليهم أن يخضعوا هذه القبائل، ثمّ تلك، وهكذا إلى أن نجحوا بعد ما يقارب المائتي عام أو أكثر من إخضاعها كلّها. بيد أنني أعود إلى وصف إيبيريا، الآن.

6- تأتي بعد أبديرا، قرطاجة الجديدة التي بناها هسدرو بعل خليفة باركا والد هنيبعل، وتعدّ هذه المدينة الأقوى بين مدن البلاد كلّها؛ فتحصيناتها جبّارة، ويحيط بها سور ممتاز، ولها ميناء، وبحيرة، ومناجم فضّة كنت قد تحدّثت عنها. وكما في الأماكن المجاورة، كذلك هنا تنتشر انتشاراً واسعاً ممالح الأسماك. وعلاوة على هذا تعدّ هذه المدينة محطّة مهمّة جدّاً لنقل البضائع الواردة من وراء البحر إلى سكّان المناطق الداخلية، ونقل سلع المناطق الداخلية إلى الخارج. وعند منتصف الطريق الساحلية من قرطاجة الجديدة إلى إيبير، يقع نهر سوكرون ومصبّه ومدينة تحمل اسم النهر نفسه. وينبع النهر من جبل مجاور لسلسلة الجبال الواقعة فوق ملقا والمناطق المحيطة بقرطاجة الجديدة؛ ويمكن عبور هذا النهر سيراً على الأقدام؛ ويجري سوكرون بموازاة إيبير تقريباً، وهو يبعد عن قرطاجة الجديدة أقل بقليل مما يبعد عن إيبير. وتقع بين سوكرون وقرطاجة الجديدة، غير بعيد عن النهر، ثلاث بلدات، هي مستعمرات المساليين. وأشهر هذه الأخيرة، هي بلدة هيميروسكوبيوس ومعبدها، معبد أرطميس الأفسسية الواقع على الرأس البحرية، والذي كان يحظى بقدر عظيم من التبجيل. وقد استخدم سرتوريوس هذا المعبد قاعدة لعملياته البحرية، لأنه يعدّ حصناً طبيعياً، ومكاناً ملائماً لأعمال القرصنة، ويظهر للبحارة من مسافة بعيدة. ويدعى هذا المعبد أيضاً، ديانوس، وهذه التسمية تماثل [التسمية الإغريقية] أرطميسوس، وتقع على

مقربة من المكان، مناجم حديد غنية، وهناك أيضاً جزيرتان صغيرتان هما بلانيسيوس وبلومباريوس، وفوقهما خور مياهه مالحة (امتداد محيطه 400 مرحلة). ثمّ تأتي عند قرطاجة الجديدة جزيرة هرقل التي يدعونها سكومبراريا، وهو اسم مشتق من اسم سكومبريوس؛ وهي سمكة يصيدونها هنا ويطهون من لحمها مرقاً ممتازاً. وتبعد هذه الجزيرة 24 مرحلة عن قرطاجة الجديدة. وإذا سرنا ثانية على الجهة الأخرى من سوكرون نحو مصبّ إيبير، فسوف نرى ساغونت التي أسّسها الزاكينثيون. وقد دمّر هنيبعل هذه المدينة ناقضاً بذلك الاتفاق مع الرومان، وهذا ما أشعل نار الحرب الثانية ضدّ القرطاجيين[5]. وعلى مقربة من ساغونت تقع مدن كيرسونيس، وأولياستر، وكارتاليا؛ وعند معبر إيبير تماماً تقع مستوطنة ديرتوسّا. وإذ يبتدئ إيبير في كانتابريا، يجري نحو الجنوب عبر سهل شاسع على موازاة جبال البيرينيه.

7- وبين منعطف إيبير نحو البحر وقمم البيرينيه، حيث أقيم نصب نصر بومبييوس، فإن المدينة الأولى، هي تارّاكون، ومع أنها لا تتوفّر على ميناء، إلاّ أنها واقعة على الخليج وتتمتّع بكثير من الميزات الأخرى، ولا يقلّ عدد سكّانها الآن عن عدد سكّان قرطاجة الجديدة. والحقيقة أن هذه المدينة توفّر الأسباب الطبيعية الملائمة لإقامة الولاة، إذ تعدّ كأنها المدينة الرئيسة لا في البلاد الواقعة على هذا الجانب من إيبير فقط، إنّما في الشطر الأعظم من المنطقة الواقعة وراء إيبير أيضاً. وتستحق الذكر كذلك الجزر الهيمنيسية الواقعة أمام المدينة، وجزيرة إيبيس، وكل الجزر الأخرى، لأنها تشكّل عاملاً من عوامل الموقع الملائم للمدينة. وبحسب إيراتوسفين أن المدينة تتوفّر على مكلأ، ومع أن أرتميدور يعارضه زاعماً أن المدينة لم توفق في أن تكون حتّى محطة رسو.

8- والساحل من أعمدة هرقل حتّى تاراكون ساحل فقير بالموانئ، إلاّ أن القسم الثاني منه، من تارّاكون حتّى إيمبوريوس، فيه عدد من الموانئ الجيّدة، كما تتميّز أراضي البلاد بالخصوبة (أراضي الليبيتانيين، وأراضي اللارتوليتيين، وسواهم من الأقوام الأخرى). وقد تأسّست إيمبوريوس على أيدي الماسّاليين؛ وهي تقع على بعد 200 مرحلة من البيرينيه والحدود المشتركة بين إيبيريا وسلتيا؛ وهذا الساحل كلّه ساحل خصب، وفيه مرافئ جيّدة. فهنا تقع رودوس، وهي بلدة للإيمبورسيين، مع أن بعضهم يقول، إن الرودوسيين هم الذين أسّسوها. وفي رودوس، كما في إيمبوريوس، يعبدون أرطميس الإفسسية؛ وسوف أتحدّث عن سبب هذا في روايتي عن ماساليا. لقد كان الإيمبورسيون يعيشون من قبل في جزيرة تقع في الجهة المقابلة، وهي نفسها الجزيرة التي

تدعى الآن المدينة القديمة، لكنّهم يعيشون الآن في القارّة. وهذه المدينة مدينة مزدوجة، لأنّ سوراً يقسمها إلى نصفين؛ وفي الأزمنة السابقة كان جيران المدينة قوم ما يدعون الإينديكيتيين، وعلى الرغم من أنه كانت لهؤلاء دولتهم، إلاّ أنهم أرادوا بدافع أمني، أن يكون لهم سور دفاعي مشترك مع الإغريق، له سياجان، لأنّ المدينة مقسومة بسور يمرّ عبر مركزها. ومع مرور الزمن اندغم الشعبان في مشاعة واحدة لها نظام دولة واحد كان عبارة عن خليط من معايير بربرية وإغريقية، وهذا ما كان حاضراً أيضاً لدى كثير من القبائل الأخرى.

9- ويجري على مقربة هنا نهر[6] ينبع من البيرينيه؛ ويستخدم الإيمبورسيون مصبّه ميناء لهم. ويشتهر الإيمبورسيون بمهارتهم في تصنيع المنسوجات الكتانية. ويشغل هؤلاء منطقة في داخل البلاد، قسم منها خصيب، بينما ينبت القسم الآخر منها شجيرات قرنية أو أنواعاً أخرى من قصب المستنقعات الذي لا فائدة منه. ويدعى هذا القسم من البلاد بالسهل اليونكاري[7]. وثمّة من الإيمبورسيين من يسكن مرتفعات البيرينيه وصولاً إلى نصب انتصار بومبييوس، الذي تمرّ عبره الطريق من إيطاليا إلى ما يسمّى إيبيريا الخارجية، ثمّ إلى بيتيكا. وتقترب هذه الطريق من البحر تارة، وتبتعد عنه تارة أخرى، خاصة في المناطق الغربية. فهي تسير إلى تاراكون من نصب انتصار بومبييوس، عبر السهل اليونكاري، وفيتيري، وما يدعى باللغة اللاتينية «سهل الشمرة»[8]، لأنّ كثيراً منها ينبت هناك. ومن تاراكون تسير الطريق إلى معبر نهر إيبير عند مدينة ديرتوسّا؛ ومن هناك عبر ساغونت ومدينة سيتابيوس تنعطف مبتعدة قليلاً عن البحر لتلامس السهل المسمّى السهل السبارتاري أو «القصبي»[9]. وهذا السهل سهل شاسع خال من المياه، ينبت فيه مختلف أنواع الشجيرات القرنية التي تصلح لصنع الحبال وتصدّر هذه المادّة إلى شتّى البلدان، خاصة إيطاليا. وفيما مضى كانت هذه الطريق تمرّ في وسط هذا السهل وعبر إيجيلاستي، وهي طريق مضنية وطويلة، أمّا الآن فقد شقّوها على مقربة من المناطق الساحلية، بحيث لا تلامس سوى السهل «القصبي»، مع أنها تمتدّ في المكان نفسه الذي كانت تمتدّ فيه الطريق السابقة، أي في المنطقة الواقعة على مقربة من كاستالون وأوبولكون؛ وعبر هاتين المدينتين تسير الطريق إلى كوردوبا وغادير، وهي أكبر مركز تجاري في البلاد. والمسافة من كوردوبا إلى أبولكون حوالي 300 مرحلة. ويروي المؤرّخون أن قيصر وصل من روما إلى أبولكون وأقام في المعسكر القائم هناك 27 يوماً، عندما كان يستعدّ لمعركة موندا[10].

10- تلك هي السمات التي يتميّز بها الساحل الممتدّ من أعمدة هرقل حتّى

الحدود المشتركة بين إيبيريا وسلتيا. أمّا المنطقة الداخلية التي تشرف على الساحل، أي البلاد الواقعة بين جبال البيرينيه والجهة الشمالية من إيبيريا وصولاً إلى أستوريا، فتحدّها سلسلتان جبليتان. إحدى هاتين السلسلتين تمتدّ على موازاة البيرينيه، وهي تبدأ من كانتابريا، وتنتهي عند بحرنا (وتدعى هذه السلسلة الجبلية باسم إيدوبيدا)؛ أمّا السلسلة الثانية فتبدأ من منتصف الثانية وتمتدّ غرباً، مع أنها تنعطف في بعض الأماكن جنوباً ونحو الشاطئ الذي يبدأ من أعمدة هرقل. وهذه السلسلة الأخيرة هي في بدايتها عبارة عن هضبة جرداء؛ وهي تمرّ عبر السهل السبارتاري، ثمّ تتّصل بالغابة المطلّة على قرطاجة الجديدة والمناطق المحيطة بملقا؛ وتحمل هذه السلسلة اسم، جبال أوروسبيدا. وبين البيرينيه وإيدوبيدا، وبموازاة السلسلتين، يجري نهر إيبير الذي ترفده الأنهار المنحدرة من هذه الجبال، ومياه الينابيع الأخرى. وتقع على نهر إيبير مدينة تدعى قيصر أغسطس، وتقع هناك أيضاً كيلسا، وهي مستعمرة لها على النهر معبر هو عبارة عن جسر حجري. ويسكن في هذه البلاد كثير من الأقوام، لكنّ أشهرها قبيلة الياكيتانيين. وتبدأ منطقة هؤلاء عند سفوح البيرينيه، ثمّ تتّسع في سهل يتّصل مع المناطق المحيطة بإيليردا وأوسكا، أي المناطق التابعة للإيليرجيتيين والواقعة غير بعيد عن إيبير. وعند هاتين المدينتين، ثمّ عند كالاغوريا، مدينة الفاسكونيين، وعند تاراكون هيميرسكوبيا على الساحل، خاض سرتوريوس آخر معاركه بعد أن طُرد من سلتيبيريا؛ وفي أوسكا كانت نهايته[11]. وعند إيليردا، وأفرانيوس، وبيتريوس ألحق قيصر الإلهي الهزيمة بقادة جيوش بومبييوس[12]. وتبعد إيليردا عن إيبير 160 مرحلة إذا ما مشينا تقريباً نحو الغرب؛ وتبعد عن تاراكون جنوباً حوالي 460 مرحلة؛ وعن أوسكا شمالاً 540 مرحلة. وتمتدّ عبر هذه المناطق طريق من تاراكون إلى أقصى أطراف أراضي الفاسكونيين على المحيط، ويعيش هؤلاء عند بومبيلون وعلى مقربة من مدينة ياسون (على المحيط مباشرة)، ويبلغ امتداد هذه الطريق 2400 مرحلة، حتّى حدود أكويتانيا وإيبيريا مباشرة. وياكيتانيا بلاد لم يقاتل فيها سرتوريوس بومبييوس وحسب، بل قاتل فيها أيضاً، سيكست ابن بومبييوس، قادة قوات قيصر[13]. وتعيش إلى الشمال من ياكيتانيا قبيلة الفاسكوفيين الذين عندهم مدينة بومبيلون، أو إذا صح القول، بومبيوبوليس.

11- إن الجانب الإيبيري من البيرينيه مكسوّ بغابات من شتّى الأنواع، ونباتات دائمة الخضرة؛ أمّا جانبها السلتي فهو خال أجرد، مع أن أجزاءه الداخلية تضمّ وديانًا يمكن أن تعيش فيها أعداد كبيرة من السكّان. ويسكن هذه الوديان القسم الأكبر

من كيريتانيي القبيلة الإيبيرية؛ ويصنع هؤلاء من لحم الخنزير قديداً ممتازاً، ليس أقلّ جودة من قديد الكانتابريين، ويوفّر هذا لهم وارداً لا بأس به.

12- وما إن نتجاوز جبل إيدوبيدا حتّى ندخل مباشرة في سلتيبيريا، وهي بلاد مترامية الأطراف وغير متماثلة. فالقسم الأكبر من أراضيها سطحه غير مستو وتجاوره الأنهار، فعبر هذه المنطقة يجري نهر آنا، ونهر تاغ، وكثرة من الأنهار الأخرى التي تليهما والتي تنبع من سلتيبيريا ثمّ تتّجه نحو البحر الغربي. ومن هذه الأنهار نهر دوريوس الذي يجري على مقربة من نومانسيا وسرغونتيا، أمّا نهر بيتيوس فينبع من أوروسبيدا، ويجري عبر أوريتانيا وبيتيكا. وإلى الشمال من الستيبيريين يعيش الفيرونيون، وهم جيران الكونيسكيين الكانتابريين؛ وينتمي هؤلاء من حيث منشؤهم إلى [زمن] الهجرة السلتية(14)؛ مدينتهم هي مدينة فاراي الواقعة عند معبر نهر إيبير؛ ومنطقتهم مجاورة للبردييتيين الذين يدعوهم معاصرونا بالبردوليين. وعلى الجانب الغربي يقطن فريق من الأستوريين، والكالايكيين، والفاكيين، والفيتونيين، والكاربيتانيين. ويقطن الجانب الجنوبي الأوريتانيون، وباقي القبائل الأخرى، من باستيتانيين وإيديتانيين، الذين يعيشون على جبل أوروسبيدا. وفي الشرق يقع جبل إيدوبيدا.

13- بين القبائل السلتيبيرية الأربع، يعدّ الأرفاكيون القبيلة الأقوى؛ ويعيش هؤلاء في الشرق والجنوب في مناطق تجاور كاربيتانيا ومنابع تاغ؛ وأروع مدنهم كلّها مدينة نومانسيا. وقد أبدى هؤلاء بسالة كبيرة في حرب السلتيبيريين التي تواصلت عشرين عاماً ضدّ الرومان؛ فقد أبادوا خلالها كثيراً من الجيوش الرومانية مع قادتها، كما استطاع النومانتينيون أن يصمدوا بصلابة أمام الحصار الذي ضربه الرومان على مدينتهم، لكنّ قلة استسلمت وسلّمت قلاعها للأعداء. ويعيش اللوسونيون في الشرق أيضاً، ومنطقتهم تجاور منابع نهر تاغ. وللأرفاكيين مدينتا سيغيدا، وبالاّنتيا. وتقع نومانسيا على بعد 800 مرحلة من قيصر أغسطس (التي تقع، كما أسلفت، على نهر إيبير). ومدينتا سيغوبريغا وبيلبيليس مدينتان سلتيبيريتان، وعند هاتين المدينتين دارت رحى حرب ميتيللوس ضدّ سرتوريوس. وفي حديثه عن قبائل الفاكيين والستيبيريين ومناطقهم، ضمّ بوليبيوس إلى بقايا المدن، مدينتيّ سيغيساما وإينتيركاتيا. وبحسب بوسيدونيوس أن ماركوس مارسيللوس جمع من السلتيبيريين غرامة حربية قدرها 600 تالانت، وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن السلتيبيريين كانوا أغنياء، وأن أعدادهم كانت كبيرة، مع أنهم كانوا يقطنون بلاداً ليست خصبة. وزعم بوليبيوس أن طيباريوس غراكوس دمّر 300 مدينة سلتيبيرية، وقد لاحظ بوسيدونيوس في معرض

سخريته منه، أن بوليبيوس لا يروي هذا إلاّ لكي يتملّق غراكوس؛ لأنه عدّ البروج مدناً (كما يحصل في مهرجانات النصر). وقد لا تكون ملاحظة بوسيدونيوس هذه من غير أساس؛ فواقع الأمر هو أنه حتّى المؤرّخون وليس القادة العسكريون وحدهم، يولعون بمثل هذا التزييف، إذ يرمون إلى تزيين وصف المآثر. والحقيقة أنه حتّى أولئك الذين يزعمون أن في إيبيريا أكثر من ألف مدينة، يميلون بدورهم إلى مثل هذا النوع من المبالغات، عندما يسمّون المستوطنات الكبيرة مدناً. فالبلاد نفسها من حيث خاصياتها الجغرافية عاجزة عن استيعاب عدد كبير من المدن: من حيث فقر تربتها أو بسبب بعدها أو توحّشها؛ ولا يجيز لنا نمط عيش السكّان ونشاطهم الاقتصادي (ما عدا أولئك الذين يعيشون على شواطئ بحرنا)، أن نفترض أي شيء من هذا؛ فسكّان الأرياف يتميّزون بالتوحّش (وأكثر الإيبيريين من هؤلاء)، بل حتّى المدن ليست في وضع يسمح لها بأن تجعل سكّانها يتلاءمون مع الحضارة بسهولة، إذا ما كان سكّان الغابات هناك يشكّلون الأكثرية، الأمر الذي يشكّل مصدر أذى لجيرانهم [لمواطنيهم].

14- وبعد السلتيبيريين يأتي في الجنوب سكّان جبل أوروسبيدا، والبلدان الواقعة حول نهر سوكرون، أي الإيديتانيون (تمتدّ حدودهم حتّى قرطاجة الجديدة)، ثمّ يأتي الباستيتانيون، والأوريتانيون على مدى يصل إلى ملقّا تقريباً.

15- لقد كان الإيبيريون كلّهم بيلتاستيين[15]، إذا صحّ التعبير، فقد كانوا يحملون أسلحة خفيفة تتلاءم وحياة قطاع الطرق (وهو ما كنت قد قلته عن اللوسيتانيين)[16]، فلم يستخدموا سوى المزاريق، والمقاليع، والخناجر. وخالطت قوّات المشاة عندهم قوّات من الفرسان، لأنّ الخيل عندهم كانت مدرّبة على السير في الجبال وسرعان ما تثني ركبها عندما تتلقّى الأمر بذلك. ويسرح في إيبيريا كثير من الغزلان والخيل البرّية. وثمّة في بعض الأماكن بحيرات مليئة بالأحياء المائية؛ وهناك أيضاً طيور، وبجع، وما شابه من أنواع الطير، وكذلك أعداد كبيرة من الحبارى؛ وتعيش في أنهارهم كلاب الماء، بيد أن أسراب كلاب النهر عندهم ليس لها فاعلية مثيلتها البانتية؛ فأسراب كلاب البحر البانتية لها خاصيات علاجية، ككثير من المواد الأخرى. فبحسب بوسيدونيوس أن النحاس القبرصي مثلاً، وحده الذي يعطي الغالميوس[17]، والزّاج، والمسحوق المعدني. ويذكر بوسيدونيوس من بين ما يراه من سمات إيبيريا الأخرى وحدها، أن الغربان هناك ليست سوداء اللون، وأن خيل السلتيبيريين البلقاء قليلاً، تبدّل لونها إذا ما خرجت إلى إيبيريا الخارجية. ثمّ يضيف، أن الخيل السلتيبيرية تشبه الخيل البارثية، لأنها أكثر سرعة وأكثر قدرة على التحمّل.

16- وإيبيريا غنية بالجذور التي تصنع منها الأصبغة. أمّا الزيتون، وكروم العنب، والتين وما إلى ذلك من النباتات، فالساحل الإيبيري من بحرنا غني جدّاً بها، وكذلك الأمر بالنسبة لقسم مهمّ من الساحل الخارجي[18]. أمّا ساحل المحيط في الشمال، فهو يفتقر إلى هذا الشجر المثمر بسبب شدّة البرد، ويفتقر إليها ما تبقى منه، في الغالب بسبب تكاسل السكّان ولأنهم لا يزالون حتّى الآن تحت سلطة عادات حمقاء، أي أنهم لا يسعون إلى نمط عيش عقلاني، بل لإشباع حاجاتهم الفيزيائية وغرائزهم الحيوانية، إلاّ إذا كنت ترى أن أولئك الذين يغتسلون، ويغسلون أسنانهم بالبول الذي يجمعونه في خزّانات خاصة (وهذا ما تفعله نساؤهم أيضاً)، يعيشون نمط عيش عقلاني، فبحسب الرواية[19]، أن الكانتابريين وجيرانهم يفعلون هذا بالضبط. وهذه العادة وكذلك عادة النوم على الأرض، تعدّان عادتين مشتركتين لدى الإيبيريين والسلتيين. وبحسب روايات بعضهم أن الكالايكيين لا يعترفون بوجود أيّ آلهة، أمّا السلتيبيريون وجيرانهم في الشمال، فإنهم يقدّمون القرابين لإله مجهول الاسم، وهم يفعلون ذلك ليلاً عند انتصاف القمر أمام أبواب منازلهم، ويؤلّفون من البيت كلّه جوقة واحدة تنشد طول الليل. وعندما جاء الفيتونيون أوّل مرّة إلى المعسكر الروماني، ورأوا بعض الجنود يروحون ويغدون بغرض التنزّه فقط، حسبوا أنهم مجانين وشرعوا يرشدونهم إلى طريق الخيم، ظنّاً منهم أنه ينبغي على هؤلاء إمّا أن يجلسوا ساكنين أو أن يقاتلوا.

17- ويمكننا استناداً إلى وصف أرتيميدور، أن نصف زينة بعض النسوة بالزينة البربرية. فبحسب قوله، إن النسوة في بعض الأماكن يعلّقن في أعناقهن حلياً حديدية ذات خطاطيف مثنية فوق الرأس وتبرز بعيداً أمام الجبين؛ ووقتما يردن ينزلن غطاء الوجه عن هذه الخطاطيف بحيث يشكّل في حالة تبعثره مظلّة للوجه، وتدعو النسوة هذا كلّه زينة. ثمّ يواصل أرتيميدور حديثه هذا فيقول: في أماكن أخرى تضع النساء على رؤوسهنّ تيمبانيوس[20] [قبعة] مستدير الشكل على القذال، ويلبس الرأس بإحكام حتّى شحمتيّ الأذنين، ويلتفّ إلى الوراء على أعلى الرأس والجانبين؛ أمّا النسوة الأخريات فإنهن ينزعن[21] شعر رؤوسهن عن الجزء الأمامي من الرأس فيبدو لامعاً أكثر من الجبين؛ ويضع بعضهن على الرأس عصاة ارتفاعها حوالي قدم، ويلففن شعرهن حولها، ثمّ يغطينه بغطاء أسود. ولكن إضافة إلى قصص حقيقية من هذا النوع، نقل الكتّاب عن القبائل الإيبيرية كلّها على وجه العموم، لكن عن القبائل الشمالية خاصة، مشاهدات وقصصاً أضافوا إليها إضافات خيالية (قصصاً عن شجاعة

هـؤلاء، وقسـاوة قلـوبهم، وبـلادة أحاسيسـهم[22] تجـاه المعانـاة والآلام). فمـثلاً، في أثنـاء الحرب الكانتابريّة[23] كانت الأمهات تقتلن أبناءهن قبل وقوعهم في الأسـر؛ بل حتّى الغلام الصغير أذعن لأمر والده فأخذ سيفاً وقتل والديه وإخوته المكبلين بالأغلال؛ وقتلت امرأة أبناء جلدتها الأسرى؛ كما يروى عن كانتابريّ رمى بنفسه إلى النار المستعرة عندما دعوه إلى ثلّة من [الجنود] السكارى. وتشترك مع القبائل السلتية في هذه الطبائع، قبائل التراقيين والسكيثيين؛ وتنسحب السمات المشتركة على الإقدام والشجاعة، وتحديداً الشجاعة، شجاعة النساء والرجال على حدّ سواء. مثلاً، هؤلاء النسوة يحرثن الأرض، وبعد أن يضعن المواليد يرقدن أزواجهن بدلاً منهن ويعتنين بهم[24]؛ وليس نادراً أن تضع واحدتهن مولودها وهي تعمل في الحقل، فتتنحّى جانباً إلى ينبوع ماء ما، ثمّ تغسل الوليد وتلفه بالأقمطة. وبحسب بوسيدونيوس أن صديقه مارموليون الماسالي، الذي كان ينزل ضيفاً عليه في ليغوريا، روى له كيف اكترى رجالاً ونساء ليحفروا أرضه، وأن إحدى النساء جاءها مخاض الوضع فانتحت جانباً بعض الشيء عن مكان العمل، ووضعت مولودها؛ وقد رأى كارموليون بنفسه أن المرأة كانت تعمل وتعاني، لكنّه لم يفهم سبب ذلك في أوّل الأمر، ولمّا عرف قبيل آخر النهار بقليل ما حصل، أطلق المرأة من العمل بعد أن أدّى لها أجر يومها؛ فحملت المرأة مولودها إلى جدول الماء وغسلته، وقمّطته بما كان لديها ومضت إلى منزلها سليمة معافاة.

18- وليست العادة التالية من سمات الإيبيريين وحدهم: يمتطون الخيل اثنين اثنين، ولكن أثناء القتال أحدهما يقاتل راجلاً؛ وليست أسراب الفئران[25] التي لا عدّ لها، سمة من سمات إيبيريا وحدها (وهذا ما يثير بين وقت وآخر أمراضاً معدية). فقد وقع مثل هذا للرومان في كانتابريا. ومع أن من كان يصيد الفئران كان يتلقى مكافأة تتناسب وعدد الفئران التي يصيدها، مع ذلك بالكاد نجح الرومان في التخلّص منها؛ وعلاوة على هذه البلية، عانى هؤلاء من نقص في السلع التموينية والخبز؛ وبسبب سوء الطرقات عانى الرومان كثيراً قبل أن يتمكنوا من سدّ النقص من أكويتانيا. وفيما يتعلّق بلامبالاة الكانتابريين، يوردون المثال التالي: عدد من الأسرى الكانتابريين المعلّقين على الصلبان، أنشدوا أنشودة النصر. وغني عن البيان أن مثل هذه السمات في طبع الكانتابريين، يمكن أن تكون بدرجة ما، أمثلة على حالة الوحشية التي كان يعيشها هؤلاء؛ ولا تشهد الأمثلة الأخرى إلاّ بدرجة أقل على تحضّرهم، لكنّها لا تدلّ في أقلّ تقدير، على جلافة فظيعة؛ مثلاً، ثمّة عرف عند الكانتابريين يقضي بأن يقدّم الزوج مهراً لزوجته؛ وبناتهم هنّ ورثتهم شرعاً، والأخوات

هنّ اللواتي يزوّجن إخوتهن. وفي هذا شيء ما من سيادة النساء، الأمر الذي لا يعدّ أبداً علامة تحضّر. وثمّة عادة أخرى تعدّ إيبيرية بامتياز، وهي تقضي بالاحتفاظ دائماً، تحسباً لأي طارئ، بسمٍّ لا يسبب ألماً يحضرونه من عشبة تشبه السيليريوس[26]؛ ثمّ من المتعارف عليه عندهم أن يكرّس الشخص حياته لمن ينسج معه أواصر الصداقة، وقد يضحّي أحدهم بحياته فعلاً في سبيل صديقه.

19- ومع أنهم يزعمون الآن أن هذه البلاد تنقسم إلى أربعة أقسام، كما أسلفت القول[27]، لكنّ آخرين يرون أنها تنقسم إلى خمسة أقسام. ولكنّ التقسيم الدقيق في هذه الحال، غير ممكن بسبب تقادم الزمن ولأن هذه الأماكن غير معروفة. ففي حال ما إذا كانت البلدان معروفة لنا، وذائعة الصيت، في هذه الحال فقط تكون معروفة لنا أيضاً حركة انتقال [القبائل]، وتقسيم البلاد، وتغيّر التسميات و... والحقيقة أن كثيرين قد صمّوا آذاننا بهذا، خاصة الإغريق، الشعب الأكثر ثرثرة في العالم. أمّا القبائل البربرية المعزولة في حدود معيّنة، والمشتتة[28]، فإن المعلومات عنها غير موثوق بها وشحيحة؛ وغنيّ عن البيان أن معرفتنا بكلّ القبائل التي تقطن بعيداً عن الإغريق، هي أقلّ بكثير. وعلى الرغم من أن المؤرّخين الرومان يقلّدون المؤرّخين الإغريق، إلاّ أنهم لا يذهبون بعيداً في تقليدهم هذا. فهم يترجمون أخبارهم من المصادر الإغريقية، بينما يظهرون هم أنفسهم ضعف ميلهم إلى العلم؛ ولذلك في كلّ مرّة يظهر فيها عند الإغريق نقص، تأتي إضافات الرومان غير ذات أهمية، خاصة وأن أكثر الأسماء الأكثر شهرة، هم من الإغريق. فالمؤرّخون السابقون مثلاً، يطلقون اسم إيبيريا[29] على كلّ البلاد الواقعة وراء رودان ووراء البرزخ المحصور بين خليجي غلاطيا، بينما يرى المؤرّخون المعاصرون أن البيرينيه هي حدود إيبيريا، ويدعون البلاد عينها باسمين مترادفين: إيبيريا وإسبانيا. بيد أنهم عادة ما لا يدعون إلاّ المنطقة الواقعة على هذا الجانب من الإيبير[30] باسم إيبيريا، مع أن المؤرّخين كانوا قد دعوا من قبل، سكّان هذه البلاد عينها بالإيغليتيين[31]، الذين شغلوا كما يقول أسكليبوس الميرليسي، منطقة غير كبيرة. وعلى الرغم من أن الرومان دعوا البلاد بالاسمين: إيبيريا وإسبانيا (دعوا أحد شطريها بذلك الجانب، وشطرها الآخر بهذا الجانب)، إلاّ أنهم في حقب مختلفة قسّموا البلاد على هذا النحو تارة، وذاك تارة أخرى، ملائمين إدارتها وشروط العصر[32].

20- وفي وقتنا هذا عندما أُعلن بعض الولايات ملكاً للشعب وللسينات[33]، وأُخضع بعضها الآخر للإمبراطور الروماني، فإن بيتيكا تعدّ ملكية للشعب الروماني، ويرسلون لإداراتها قاضياً ونائب قاض وممثلاً مقيماً؛ وحدّدوا حدودها الشرقية على مقربة من كاستالون. وما تبقى من إيبيريا كلّه ملك لقيصر؛ وهو يرسل إلى هناك

ممثليْن مقيميْن: قاضياً ونائب قنصل، ويرسلون نائب قاض ومعه ممثل مقيم لإدارة الشؤون القضائية عند اللوسيتانيين؛ فبلادهم مجاورة لبيتيكا، وتمتدّ حتّى نهر دوريوس ومصبّاته (ويطلق اسم لوسيتانيا الآن على هذه البلاد تحديداً). وتقع هنا مدينة أغسطس إيمريت. وما تبقّى من المنطقة التابعة لقيصر، أي الجزء الأكبر من إيبيريا، يديره والٍ [له سلطة قنصلية] تحت إمرته جيش كبير يعادل ثلاثة فيالق، إضافة إلى ثلاثة مبعوثين. أحد هؤلاء الأخيرين ومعه فيلقان، يحرس حدود البلاد كلّها في الشمال وراء دوريوس؛ وفي زمن مضى كان الناس يسمّون سكّان هذه البلاد لوسيتانيين؛ أمّا معاصرونا فيدعونهم كالايكيين. وتجاور هذه البلاد الجبال الشمالية مع الآستوريين والكانتابريين القاطنين هناك. ويجري عبر أستوريا نهر ميلس؛ وإلى الأمام قليلاً تقع عليه مدينة نيغا؛ وعلى مقربة منها يقع خور المحيط الذي يشكّل حدّاً بين [مناطق] الأستوريين والكانتابريين. والمنطقة التي تلي بعد ذلك على امتداد الجبال وصولاً إلى البيرينيه، يحرسها الثاني من المبعوثين الثلاثة ومعه الفيلق الآخر. أمّا المبعوث الثالث فمهمته مراقبة شؤون القسم الداخلي من البلاد، كما يدافع عن مصالح togati[34] الذين ذكرناهم آنفاً (بصفتهم أناساً مسالمين ينزعون نحو الحضارة، فقد اقتبسوا مع الزيّ الروماني ثقافة إيطاليا ونمط عيشها). وهؤلاء الأخيرون هم السلتيبيريون، والقبائل القاطنة على مقربة منهم على جانبي إيبير وصولاً حتّى المناطق الساحلية. وفيما يخصّ الوالي نفسه، فإنه يقضي الشتاء في المناطق الساحلية، ويرأس الجلسات القضائية، خاصة في قرطاجة الجديدة وتارّاكون؛ بينما يجول في الصيف على مختلف مناطق الولاية ليحدّد ما ينبغي تصحيحه. ويعيش هناك أيضاً وكلاء قيصر الذين ينتمون إلى فئة الفرسان، وهؤلاء هم الذين يصرفون الأموال للإنفاق على المقاتلين.

الفصل الخامس

1- ومن الجزر الواقعة أمام إيبيريا، جزيرتان بيتيوسيتان، وجزيرتان هيمنيستيتيان، ويدعونها أيضاً جزر البليار[1]، وهي واقعة كذلك أمام الساحل بين تارّاكون وسوكرون، حيث تقع ساغونت؛ وتقوم هذه الجزر كلّها في عرض البحر، مع أن الجزيرتين البيتيوسيتين تميلان[2] نحو الغرب أكثر من الجزيرتين الهيمنيستيتين. وتحمل إحداهما اسم إيبوس؛ وثمّة في هذه الجزيرة مدينة تحمل الاسم نفسه؛ ويبلغ امتداد محيط الجزيرة 400 مرحلة، وعرضها وطولها متساويان تقريباً. وتدعى الجزيرة الأخرى جزيرة أفيوسا، وهي تقع على مقربة من جزيرة إيبوس، لكنّها جزيرة خالية وحجمها أصغر بكثير من حجم إيبوس. وفي الجزيرة الهيمنستية الأكبر، مدينتان: بالما

وبولينتيا؛ وهذه الأخيرة تقع في الشطر الشرقي من الجزيرة، بينما تقع الأولى في شطرها الغربي. ويبلغ طول الجزيرة أقلّ من 600 مرحلة بقليل، وعرضها أقل من 200 مرحلة بقليل، لكنّ أرتيمدور يجعل طول الجزيرة وعرضها ضعف هذين الرقمين. وتبعد الجزيرة الصغرى عن بولينتيا ما يقارب 270 مرحلة. ومع أن حجم هذه الجزيرة أصغر بكثير من حجم الجزيرة الكبرى، لكنّها لا تقصّر عنها من حيث خصوبة التربة؛ فالجزيرتان تتميّزان بالخصوبة ولهما موانئ جيّدة، مع أن مداخل هذه الموانئ مليئة بالحجارة البحرية، الأمر الذي يقتضي الحذر الشديد لدى دخولها. ونتيجة لخصوبة هذه الأماكن، فإن سكّانها مسالمون أيضاً، كسكّان إيبوس. ولكنّ بما أن بعضهم، والحقيقة أنهم قلّة، عناصر إجرامية أقامت صلات مع قراصنة البحر، فقد اتهم جميعهم بالإجرام، وشنّ ميتيللوس ضدهم حملة[3] عسكرية بناء على طلب البلياريين (وهو الذي أسّس هذه المدن). وكانت خصوبة الجزيرتين هذه، سبباً لوقوع سكّانهما ضحية مقاصد عدوانية، مع أنهم كانوا أناساً مسالمين، ومع ذلك فإنهم يعدّون أفضل رماة المقاليع. ويروى أنهم أخذوا يتدرّبون على هذا الفن بدأب واجتهاد، منذ أن استولى الفينيقيون على جزيرتهم. ويقال، إن الفينيقيين أوّل من علّم هؤلاء ارتداء الجبّة ذات الحاشية العريضة، لكنّهم كانوا يقاتلون عادة من غير أن يشدّوا وسطهم بحزام، لكنّهم كانوا يلفّون يدهم بجلد ماعز[4]، أو يحملون مزراقاً محمّى بنار يحملونها باليد الأخرى؛ ونادراً ما يكون المزراق مزوّداً برأس حديدية صغيرة؛ وكانوا يحملون ثلاثة مقاليع ملفوقة حول الرأس، وكانت هذه تصنع من القصب ولها كفوف سوداء؛ وهذا النوع من القصب هو النوع الذي يجدلون منه الحبال؛ ويقول عنه فيليتوس في ملحمته «هيرمينيبيا»[5].

مسكين خيتون وملطّخ بالقاذورات،

تلتفّ حول وركه الناحل قطعة من قصب أسود،

وكأني به يتحدّث عن شخص محزّم بحبل من القصب. وقد يستخدم هؤلاء أيضاً مقاليع مجدولة من الشعر أو الأوتار؛ إحدى أنشوطتيها حبلها طويل، وتستخدم للرمي إلى مسافات بعيدة، والأخرى حبلها قصير، تستخدم للرمي إلى مسافات قصيرة، أمّا المقلاع الوسط فيستخدم للمسافات الوسط. ومنذ الطفولة يتمرّن هؤلاء على الرمي بالمقلاع، وقد وصل اهتمامهم بهذا الأمر إلى درجة أنهم كانوا يمنعون الخبز عن أطفالهم إلى أن يصيبوه بالمقلاع. ولذلك أمر ميتيللوس عندما اقتربت سفنه من هذه الجزر، بشد جلود على متونها لحمايتها من مقذوفات المقاليع. وكان هذا قد نقل إلى هذه الجزر 3000 مستعمر روماني جاء بهم من إيبيريا.

2- ويضاف إلى خصوبة التربة في الجزيرتين الهيمنيستيتين، ظرف ملائم آخر يتمثل في صعوبة العثور هناك على أيّ حيوان مؤذٍ. ويقولون إنه حتّى الأرنب هنا ليس محلّيّ المنشأ، إنّما انتشر في أعقاب نقل احدهم لذكر وأنثى الأرانب من البرّ المقابل؛ وفي بادئ الأمر تكاثر نسل الأرانب هنا إلى درجة أن الأرانب أخذت تخرّب المنازل والشجر إذ تحفر تحتها، الأمر الذي اضطر السكّان إلى طلب عون الرومان، كما ذكرت آنفاً[6]. وغني عن البيان القول، إن سهولة صيد الأرانب اليوم، لا تتيح لهذه الطريدة فرصة للانتشار وتحقيق الغلبة، فالفلاحون يجمعون محاصيل حقولهم بنجاح. وتقع هاتان الجزيرتان على هذا الجانب ممّا بات يسمّى بأعمدة هرقل.

3- وثمّة عند الأعمدة جزيرتان صغيرتان، إحداهما تدعى جزيرة هيرا؛ وهناك من يدعو الجزيرتين بالأعمدة أيضاً[7]. وعلى الجانب الآخر من أعمدة هرقل، تقع غادير. وفيما يتعلّق بغادير، أنا لم أقل سوى أنها تبعد حوالي 750 مرحلة عن كالبا، أي أنها تقع قرب مصبّ نهر بيتيوس، بيد أنه ثمّة عن هذه المدينة روايات أكثر مما عن المدن الأخرى. فيروون مثلاً، أنه يعيش هنا أناس يجهّزون سفناً تجارية كبيرة للإبحار في بحرنا، والبحر الخارجي كذلك؛ لكنّ هؤلاء لا يسكنون في جزيرة كبيرة، ولا يملكون جزءاً مهماً من البرّ مقابل الجزيرة، كما أنهم لا يملكون كثيراً من الجزر الأخرى، بل يعيشون أساساً في البحر، وقلّة منهم تبقى في الديار أو يقضون وقتهم في روما. ولا يقلّ عدد سكّان المدينة عن عدد سكّان أيّ مدينة أخرى، ما عدا روما. وعلى أي حال فقد سمعت، أن واحداً من إحصاءات زمننا هذا، كشف عن وجود 500 شخص من الفرسان الغاديتاتيين، ونحن لا نجد مثل هذا العدد في المدن الأخرى، بما فيها المدن الإيطالية، ما عدا مدينة باتافيا [8]. وعلى الرغم من أن أعداد الغاديتانيين كثيرة هذه الكثرة كلّها، إلا أنهم يشغلون جزيرة لا يزيد طولها على 100 مرحلة، ويصل عرضها في بعض الأماكن إلى مرحلة واحدة فقط. وفي بادئ الأمر عاش هؤلاء في مدينتهم الصغيرة، لكنّ بالْب الغاديتاني، الذي نال أوسمة الشرف[9]، أسّس لهم مدينة أخرى دعاها بالمدينة الجديدة؛ فدعو المدينة التي تشكّلت من شطرين، باسم ديديما[10]؛ مع أن امتداد محيطها لا يتعدّى 20 مرحلة، وعلى أيّ حال فإن الازدحام هناك ليس ملحوظاً تماماً. فالذين يقيمون فيها إقامة دائمة ليسوا كثرا ً، لأنّ العدد الأكبر من الآخرين موجود في البحر، مع أن بعضهم يعيش على البر في الجهة المقابلة، خاصة على الجزيرة[11] الصغيرة الواقعة أمام غادير، لأنّ موقعها ملائم، وبما أنهم أعجبوا كثيراً بهذا الموقع، فقد جعلوا من الجزيرة ما يشبه المدينة التوأم لديديما. ومع ذلك فإن عدداً قليلاً نسبياً من السكّان يعيش في هذه الجزيرة الصغيرة أو في المدينة الميناء[12] التي

بناها لهم بالْب على الشاطئ المقابل من البرّ. وتقع مدينة غادير في الشطر الغربي من الجزيرة، ويجاورها على أطراف الجزيرة وعلى مقربة من الجزيرة الصغيرة، معبد كرونوس؛ أمّا معبد هرقل فإنه يقع في الجهة الأخرى المتجهة نحو الشرق، وبالضبط في المكان الذي تكاد الجزيرة أن تلامس فيه برّ القارّة، حيث ثمّة مضيق عرضه حوالي مرحلة واحدة. ويقال إن المعبد يبعد عن المدينة 12 ميلاً [رومانيا]، والعدد اثنا عشر هو عدد مآثر [هرقل]؛ ولكنّ المسافة في الحقيقة أكبر، فهي تساوي طول الجزيرة، وطول الجزيرة، هو امتدادها من الغرب إلى الشرق.

4- ويبدو أن ثيريكيدس قد قصد غادير[13] عندما تحدّث عن إيريثيا إلى حيث تنقل الأساطير مغامرات هيريون. بينما رأى آخرون في إيريثيا جزيرة تقع على مقربة من هذه المدينة، ويفصلها عنها مضيق عرضه مرحلة واحدة، أي أنهم أخذوا المراعي الخصبة بعين الحسبان (لأن حليب الأغنام التي ترعى هناك لا يطرح مصلاً). فلدى تحضير الجبنة يخلطون الحليب بكميات كبيرة من الماء، لأنّ نسبة الدسم فيه عالية جدّاً. وخلال 50 يوماً يمكن أن تختنق الحيوانات وتهلك إذا لم تفصد عروقها لإخراج قليل من الدماء منها. والأعشاب التي تقتات الحيوانات عليها أعشاب جافّة، لكنّها تجعلها سمينة جدّاً؛ ويفترض بعضهم أن هذه الحقيقة هي التي دفعت إلى إنشاء أسطورة قطعان هيريون. وهم يقطنون الشاطئ كلّه معاً[14].

5- في رواياتهم عن تأسيس غادير يذكر الغاديتانيون واحداً من الكهنة المتنبّئين الذي أعطي كما قالوا للتيريين؛ فقد أمر هذا بإرسال مستعمرين إلى أعمدة هرقل. وبحسب الرواية، أن البعثة وهي تستطلع المكان وصلت إلى مضيق عند كالبا، فظنّ أفرادها إن الرؤوس البحرية التي تشكّل المضيق، تقع خارج حدود المعمورة ووراء الحدود التي وصلت إليها حملة هرقل، ورأوا في هذه الرؤوس نفسها ما كان الكاهن قد دعاه الأعمدة؛ فنزلوا في مكان داخل[15] المضيق الضيّق، وعلى وجه التحديد، هناك حيث تقع الآن مدينة الإيكسيتانيين؛ فقدموا قرباناً، ولكن عندما تبيّن لهم أن القربان غير موفق، عادوا أدراجهم. فأُرسلت بعد وقت جماعة أخرى من المستعمرين توغّلوا إلى وراء حدود المضيق بحوالي 1500 مرحلة نحو الجزيرة المكرّسة لهرقل والواقعة على مقربة من مدينة أونوبا في إيبيريا؛ وإذ ظنّ هؤلاء أن الأعمدة تقع هنا على وجه التحديد، قدموا ذبيحة للإله، لكنّ هذه الذبيحة لم تكن موفّقة أيضاً، فعادوا أدراجهم إلى الديار. وأخيراً أسّس المستعمرون الذين تشكّلت منهم البعثة الثالثة، مدينة غادير، فقد بنوا معبداً في الشطر الشرقي من الجزيرة، وبنوا المدينة في شطرها الغربي. ولذلك يرى بعضهم أن رؤوس المضيق هي الأعمدة، ويرى آخرون أن غادير هي الأعمدة،

ولكنّ فريقاً ثالثاً يرى أن الأعمدة هي جبلا كالبا وأبيليك، وهو الجبل الليبي الذي يرتفع مقابل جبل كالبا، الذي يرى إيراتوسفين أنه يقع في ميتاغونيا، وهذه الأخيرة منطقة تشغلها قبائل رحّل؛ إلى أن اعترفوا في آخر المطاف بأن الأعمدة هي الجزيرتان الصغيرتان الواقعتان على مقربة من الجبلين (واحدة من الجزيرتين تدعى جزيرة هيرا). وإذ يأتي أرتيميدور على ذكر جزيرة هيرا ومعبدها، يزعم أن هذه الجزيرة جزيرة ما أخرى؛ بيد أنه لا يذكر جبل أبيليك، ولا قبيلة الميتاغونيين. وهناك أيضاً كتّاب ينقلون إلى هنا البلانكتس والسيمبليغادا عادّين هذه الصخور الأعمدة التي يدعوها بيندراوس «بوابات غادير» (ويقرّ أنها أبعد نقطة وصل إليها هرقل). ويفترض ديكيارخ، وإيراتوسفين، وبوليبيوس وأكثر الكتّاب الإغريق، أن الأعمدة تقع في مكان ما على مقربة من المضيق. أمّا الإيبيريون والليبيون فإنهم على الضدّ من هذا يؤكّدون، أن الأعمدة تقع في غادير، لأنه ليس في الأماكن المجاورة للمضيق أيّ شيء يشبه الأعمدة، على حدّ قولهم. وعلى حدّ زعم آخرين، أن الأعمدة هي أعمدة برونزية ارتفاع واحدها 8 أذرع، وهي موجودة في معبد هرقل في غادير، وعليها نصّ يشير إلى النفقات التي أُنفقت على بناء المعبد. وإذ يزور البحارة المعبد والأعمدة في نهاية رحلتهم، ويقدّمون القربان لهرقل، كانوا يشرعون في استراحاتهم بنشر حكاية تقول، إن آخر الأرض والبحر هنا في هذا المكان. وعلى هذا النحو عينه يرى بوسيدونيوس أن هذه الحكاية هي الحكاية الأكثر مصداقية؛ لكنّه يرى في الكاهن المتنبّئ والبعثات الاستعمارية المتكررة إلى الأعمدة، مجرّد اختلاق فينيقي. وماذا يمكن أن يقال عن صحّة البعثات الاستعمارية أو بطلانها، عندما يكون هذا الرأي وذاك رأيين سخيفين؟ ومهما يكن من أمر، فإن نفي أن تكون الجزيرتان الصغيرتان، أو أن يكون الجبلان يشبهون الأعمدة، وأن البحث عند الأعمدة بالمعنى الدقيق للكلمة، عن أطراف المعمورة أو عن حملة هرقل، أن لهذا كلّه مغزى معيّن؛ فمن المعروف أنه كان ثمّة تقليد قديم يقضي بإقامة مثل هذا النوع من العلامات الحدودية. فسكّان ريغوس مثلاً، أقاموا عند الخليج[16] عموداً يشبه برجاً صغيراً؛ وأُقيم قبالة هذا العمود برج دعي برج بيلور[17]. وهناك أيضاً مذبحا الأخوين فيليني[18]، اللذين أقيما تقريباً في منتصف الطريق بين السرتين. وثمّة من يذكر عموداً أقامه في الأزمنة الغابرة على برزخ كورينثوس، أولئك الإيونيون الذين، بعد طردهم من البيلوبونيز، امتلكوا أتيكا وميغاريدا مع القبائل[19] التي استولت على البيلوبونيز؛ فقد كتبوا على جانب العمود من جهة ميغاريدا:

ليست هذه هي البيلوبونيز، بل إيونيا،

وكتبوا على الجانب الآخر: **هنا البيلوبونيز، وليس إيونيا**[20]

أمـا الإسـكندر فمحاكـاة لهرقـل وديونيسـيوس، بنـى مـذابح[21] حـدّدت حـدود حملته الهندية في أقصى المناطق التي بلغها في شرقي الهند. إن هذا التقليد موجود فعلاً.

6- وعلاوة على ذلك إنـه مـن الطبيعـي أن تتغيّـر تسـميات الأمـاكن بعـد أن يـدمّر الزمن العلامات الحدودية التي كانت قد أقيمت: فمذبحا الأخوين فيليني مثلاً، لم يعد لهمـا وجـود الآن، أمّـا المكـان فقـد حـافظ علـى اسمـه القـديم. ويـروى أن أعمـدة هرقـل أوديونيسيوس لا ترى في الهند، ومع ذلك عندما دعـا المقدونيون أمـاكن معروفـة أو دلّـوا عليهـا، فـإنهم لم يشتبهوا بوجـود أعمـدة هرقـل هنـا إلاّ في الأمـاكن الـتي وجـدوا فيهـا علامات تشير إلى أحداث من قصة ديونيسيوس أو هرقل. ومما لا ريب فيه أن الأمر جرى هنا في غادير على هذا النحو عينه، فالوافدون الأوائل اشتبهوا بالعلامات الحدودية التي بنتهـا أيـدي البشـر، مـن مـذابح، وبـروج، وأعمـدة، ووضـعت في أمـاكن بـارزة في أقصـى الأطـراف الـتي وصـلوا إليهـا (وأبـرز أمـاكن تعلـيم نهايـات الأمـاكن وبـداياتها، هـي المضـائق، والجبـال الواقعـة هنـاك، والجـزر)[22]؛ وبعـد أن انـدثرت النصـب الـتي أقامهـا البشـر، أخـذت الأمـاكن أسماءهـا، سـواء كانـت تلـك جـزراً صـغيرة أو رؤوسـاً بحريـة تشكّل مضيقاً، لأنه من الصعب أن نحدّد ما إذا كانت التسمية تخص جزيـرة أو رأسـاً بحريـة، لأنّ مصـطلح «أعمـدة» يتماشـى مـع الاثـنـين. وأنـا أقـول «يتماشـى» لأنّ الجـزر والـرؤوس المعنية موجودة في الأماكن التي تدل على حدود؛ ولـذلك يـدعى المضيق «ثغـراً» لا لهذا المكـان فقـط، إنّمـا لأمكنـة أخـرى كـثيرة، أي لـدى دخولـه فـإن «الثغـر» يـدعى بداية، ولدى الخروج منه يدعى نهاية. وعلى هذا النحو فإن مـن السـهل أن نـرى في الجـزر الصـغيرة الواقعـة عنـد الثغـور، أعمـدة؛ فهـي تظهـر في صـورة شـكل لـه ملامـح دقيقـة واضـحة كعلامـات؛ وعلـى نحـو مماثـل يمكـن تشـبيه الأعمـدة بالجبـال الواقعـة عنـد المضيق، لأنّ لها بروزاً كالأعمدة أو العلامات. وعليه لعلّ بينـداروس كـان محقّـاً عنـدما تحـدّث عـن «بوابـات غـادير»، إذا مـا كـان قـد تخيّـل الأعمـدة قائمـة عنـد الثغـر؛ فثغـر المضيق يشبه البوابة. ولكنّ غادير لا تقـع في مكـان يشـير إلى نهايـة، بـل تقـع في مكـان أقـرب إلى وسـط سـاحل طويـل يشـكّل خليجـاً. ولكـنّني أرى أن إرجـاع هــذه الأعمـدة القائمـة في معبـد هرقـل، إلى أعمـدة هرقـل، أمـر يفتقـر إلى الأسـس القويـة. فعلـى أغلـب الظنّ أن شيوع اسم «أعمدة هرقل» هـذا قـد انتشـر لأنّ هـذا الاسـم لم يسـتخدمه التجـار أولاً، بل القادة العسكريون، وهذا ما حصل بالنسبة للأعمدة الهندية أيضـاً؛ عـدّاك عـن هـذا أن النقش[23] المـذكور آنفـاً يشـهد ضـدّ هـذا الـرأي، لأنـه لا يتحـدّث عـن تكـريس نموذج[24] تقدمة مقدّسة، بل يحتوي على سجل بالنفقات؛ وأعمدة هرقـل كـان ينبغـي أن تكون نصباً يخلّد ذكرى مآثره هو، وليس نفقات الفينيقيين.

7- وبحسب بوليبيوس أنه ثمّة في هيراقليون[25]، أي في غادير، ينبوع ماء عذب يقود إليه منحدر من عدة درجات؛ ويُظهر هذا الينبوع خاصية تتناقض وتغيّر مستوى الماء في النهر، ففي أثناء المدّ تغور مياهه، ثمّ تعود لتملأ المكان في أثناء الجزر. ويقول بوليبيوس في تفسيره لهذه الظاهرة، إن الهواء الذي يندفع من أعماق الأرض إلى سطحها (إذا ما غمرتها المياه وقت المدّ البحري)، يتوقف عن الخروج، كما هو معتاد، وإذ يعود القهقرى، يغلق منافذ الينابيع فيحصل النقص في تدفّق الماء؛ وعندما يتحرّر السطح من المياه التي تغمره، فإن الهواء يعبر من جديد ويحرّر مسارب الينبوع فيسيل الماء ثانية ويملأ المجرى. أمّا أرتيميدور، فمع أنه يعارض بوليبيوس، إلاّ أنه يضيف بعض التفسير الخاص به لسبب الظاهرة المعنية، مستذكراً رأي المؤرّخ سيلانوس. ويهيّأ لي أنه لم يقل شيئاً يستحقّ الذكر، لأنه وسيلانوس، إذا جاز التعبير، جاهلان في هذه المسألة. ومع أن بوسيدونيوس يرى أن ما روي عن هذا باطل، إلاّ أنه يؤكّد أن في هيراقليون بئرين، والثالث في المدينة؛ وإذا ما أُخذ الماء من أصغر البئرين من غير توقّف، فإنه يجفّ في الحال، وإذا ما توقفت عن اغتراق الماء فإنه يمتلئ من جديد؛ أمّا البئر الأكبر فيمكن اغتراف الماء منه طول اليوم (مع أن منسوبه ينخفض طبعاً، مثله مثل أيّ بئر آخر)، وفي الليل يمتلئ من جديد إذا ما توقف اغتراف الماء منه؛ ولكن، بما أن وقت امتلاء البئر كثيراً ما يتزامن ووقت الجزر، فإن السكّان المحلّيين يتحدّثون من غير أيّ أسس، عن «حركة عكسية»[26] للينبوع. وغنيّ عن البيان أنه ليس بوسيدونيوس وحده الذي أكّد على أنهم يصدّقون هذه الحكاية، بل عرفت بها أنا كذلك، لأنهم يروونها دائماً كواحدة من المفارقات[27]. وسمعت أيضاً، أن هناك آباراً أخرى، إحداها في حدائق ضواحي المدينة، والأخرى في داخل المدينة، لكنّ رداءة نوعية مياهها جعلت السكّان يبنون كثيراً من الخزانات. بيد أنني لا أعرف ما إذا كان أيّ من هذه الآبار يبرهن على صحّة فرضية «حركتها المعكوسة». أمّا بخصوص الأسباب التي سيقت، إذا صحّ أن الأمر على هذا النحو فعلاً، فإنه ينبغي عندئذٍ أن نصنّف هذه المسألة في عداد المسائل الصعبة. فقد يكون الأمر حقّاً على النحو الذي ساقه بوليبيوس، وقد يكون أيضاً أن بعض عروق الينابيع التي تتغذى من الخارج، تضعف وترغم الماء على أن يجري خارج مجراه السابق نحو الينبوع (إن العروق تتغذى بالضرورة عندما تغمر موجة المدّ المكان). ولكن، إذا كانت ظاهرة المدّ والجزر شبيهة بالشهيق والزفير[28]، كما يقول أثينودوروس، فعندئذٍ قد يكون ثمّة مياه ما جارية تشقّ طريقها إلى سطح الأرض، عبر طرق واحدة طبعاً (وثغورها تحديداً هي التي ندعوها ينابيع وعيون ماء)؛ وتجري هذه المياه نحو البحر عبر طرق أخرى، أي أنها تزيد من ارتفاع مستوى مياه البحر[29] ومستوى

مياهها في الآن عينه (بحيث أنها تفيض)، وفي كلّ مرّة يحدث فيها ما يشبه الزفير، تترك هذه المياه مجراها المعتاد، ومن ثمّ تعود إليه في كلّ مرّة يتراجع البحر.

8- وأنا لا أفهم كيف أن بوسيدونيوس الذي يقدّم لنا الفينيقيين[30] أناساً أذكياء في الحالات الأخرى، ينسب إليهم في هذه الحال أمراً هو أقرب إلى السخافة منه إلى الفطنة. فالليل والنهار يقاسان بدوران الشمس التي تختفي تحت الأرض تارة وتسطع فوقها تارة أخرى. ولكنّ بوسيدونيوس يؤكّد أن حركة المحيط هي دورية كأطوار دورات الأجرام السماوية[31]؛ لأنها تجري تحت تأثير القمر وتمثل، أولاً، دوراً يومياً، ثانياً، دوراً شهرياً، ثالثاً، دوراً سنوياً. ففي كلّ مرّة، عندما يرتفع القمر فوق دائرة الأفق إلى علوّ علامة دائرة البروج[32]، يبدأ البحر يزخر ويتمدد فوق اليابسة بوضوح، طالما القمر على دائرة خطّ الزوال؛ لكن عندما يميل هذا الجرم السماوي نحو دائرة الأفق، يبدأ البحر بالتراجع رويداً رويداً إلى أن يرتفع القمر فوق نقطة المغيب على ارتفاع علامة دائرة البروج؛ ومن ثمّ يقيم البحر على هذا الوضع إلى أن يدنو القمر من نقطة المغيب، بل أكثر من ذلك، إلى أن يغور القمر أكثر تحت الأرض، ولا يعود ابتعاده عن دائرة الأفق بعلوّ علامة دائرة البروج؛ ثمّ يتمدّد البحر فوق اليابسة من جديد إلى أن يبلغ القمر دائرة خطّ الزوال تحت الأرض، فيبدأ بالتراجع مرّة أخرى إلى أن يقطع القمر طريق دورته نحو الشروق، ويغدو ابتعاده عن دائرة الأفق بعلوّ علامة دائرة البروج؛ ثمّ يبقى البحر هادئاً إلى أن يرتفع القمر من جديد إلى علوّ علامة دائرة البروج فيتمدّد مرّة أخرى فوق اليابسة. ويتابع بوسيدونيوس حديثه فيقول، إن هذا الدور، هو الدور اليومي. أمّا في الدور الشهري، فإن المدّ والجزر يبلغان أقصى قوتهما في طور التلاقي تقريباً[33]، ثمّ يتناقصان إلى أن يبزغ الهلال الجديد[34]؛ ثمّ يتزايدان ثانية إلى دور انتصاف القمر ليبدأ تراجعهما مرّة أخرى حتّى منتصف دور تناقص القمر[36]. أمّا بخصوص الدورات السنوية، فإن بوسيدونيوس يقول؛ إنه علم عنها من سكّان غادير الذين قالوا، إنّ المدّ والجزر يبلغان أوج قوتهما وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. ويستنتج بوسيدونيوس من هذا، أن ظاهرتي المدّ والجزر تدخلان دور الضعف ابتداء من وقت الانقلاب الشمسي المذكور حتّى وقت الاعتدال[37]، وأن قوتهما تتزايد حتّى وقت الانقلاب الشمسي الشتوي، ثمّ تدخلان دور الضعف الذي يستمرّ حتّى وقت الاعتدال الربيعي، وبعدها تزداد قوّتهما حتّى وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. ولكن إذا كانت أدوار المدّ والجزر هذه تتكرر كلّ نهار وليل، في الوقت الذي يتمدّد فيه البحر على اليابسة خلال هذين الوقتين مرتين ويتراجع عنها مرتين، بانتظام في النهار والليل، فكيف إذن يمكن أن يتزامن امتلاء الينبوع «غالباً» ووقت الجزر، ولا يحصل

اضمحلاله غالباً أيضاً، أو على الرغم من أنه يحصل غالباً، إلاّ أنه مع ذلك أقلّ تكراراً؟ أو حتّى لو كان على القدر نفسه من التكرار؟ ولكن هل يعقل ألاّ يكون سكّان غادير قادرين على ملاحظة مثل هذه الظاهرات اليومية، وأن يكونوا على الضدّ من هذا، قادرين على رصد الأدوار السنوية على أساس ما يحصل مرّة واحدة في العام؟ لكنّ بوسيدونيوس يصدّق سكّان غادير فعلاً، وهذا واضح من خلاصته التي يضيفها: ضعف هذه الظواهر وقوّتها يحصلان دورياً بين وقت انقلاب شمسي وآخر، وابتداء من هذا الأخير تلاحظ الحركة العكسية مرّة أخرى. بيد أن فرضية بوسيدونيوس الأخرى هذه فرضية منافية للعقل، خاصة لأنه على الرغم من أن سكّان غادير كانوا أناساً ذوي ملاحظة دقيقة، لكنّهم لم يلحظوا الظاهرات التي تحدث فعلاً، وصدّقوا ما لا يحدث[38].

9- ويخبرنا بوسيدونيوس أيضاً، أن سلوقس من منطقة البحر الأحمر يتحدّث عن شيء من عدم الانتظام أو الانتظام في هذه الظاهرات تبعاً لاختلاف علامات دائرة البروج، أي إذا كان القمر في علامات الاعتدال، فإن ظاهرة المدّ والجزر تحدث بانتظام، أمّا إذا كان في علامات الانقلاب الشمسي، فإنها تحدث بغير انتظام إن من حيث الكمّ أو من حيث السرعة، بينما تكون العلاقة[39] في كلّ من العلامات الأخرى متناسبة طرداً ودنوّ[40] القمر منها. ومع أنه يقول إنه قضى أياماً كثيرة في هيراقليون وغادير وقت الانقلاب الشمسي الصيفي إبان دور انتصاف القمر تقريباً، إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يتبيّن الفوارق السنوية في المدّ والجزر، بيد أنه لاحظ في إيليبا أثناء طور التلاقي تقريباً، وخلال هذا الشهر كلّه، حدوث تغيّرات مهمّة في ارتفاع مستوى المياه في نهر بيتيوس بعد المدّ، بالمقارنة مع التغيّرات السابقة عندما لم تكن المياه تغمر ضفّتيّ النهر حتّى إلى المنتصف؛ أمّا في تلك المرّة فقد فاضت المياه إلى درجة أن الجنود[41] كانوا يستقونها من مكان إقامتهم في إيليبا (وإيليبا هذه تقع على بعد حوالي 700 مرحلة عن البحر). ومع أن المياه في اثناء المدّ غمرت السهول الساحلية في داخل البلاد على امتداد 30 مرحلة[42]، وبلغت من العمق حدّاً أدّى إلى تشكّل الجزر، ومع ذلك فإن رأس أساسات معبد هيراقليون والحاجز القائم أمام ميناء غادير، لم تغمرهما المياه إلاّ أقلّ من 10 أذرع، على حدّ قول بوسيدونيوس الذي يؤكّد أنه قاس ارتفاع الماء بنفسه، وإذا ما أضفنا ضعف الكمية من هذا إلى الزيادات الإضافية التي تنشأ أحياناً، فإننا نستطيع أن نتخيّل عندئذٍ لوحة الظاهرات التي تثير في السهول مدّاً وجزراً مهولين. وعلى حدّ قول بوسيدونيوس، فإن نظام المدّ والجزر هذا ينسحب بالتأكيد على كلّ ساحل المحيط، بينما الظاهرة التي تحدث في نهر إيبير، كما يقول، هي ظاهرة «جديدة

وفريدة» بالنسبة لهذا النهر؛ فهو يفيض في بعض الأماكن في كلّ مرّة تهبّ فيها الريح الشمالية قويّة، بصرف النظر عن هطل الأمطار وذوبان الثلوج. وسبب ذلك هو بحيرة يجري النهر عبرها، فالرياح تسوق مياه البحيرة ومياه النهر معاً من البحيرة.

10- ويروي بوسيدونيوس عن شجرة[43] تنحني أغصانها نحو الأرض؛ وتعطي في أحيان كثيرة ورقاً على شكل السيف طول واحدتها ذراع وعرضها أربع أصابع. ويقول أيضاً، إنه ثمّة عند قرطاجة الجديدة شجرة[44] يصنعون من شوكها أليافاً؛ ويصنعون من هذه الألياف أجمل المنسوجات. وأنا بدوري أعرف شجرة[45] في مصر تشبه شجرة غادير هذه بانحناءة أغصانها، لكنّها لا تشبهها بأوراقها، كما أن شجرة مصر لا تطرح ثمراً. أمّا شجرة غادير فهي بحسب بوسيدونيوس، تطرح ثمراً. وفي قبدوقيا أيضاً يصنعون من الأشواك أقمشة؛ لكنّ الأشواك التي يصنعون منها الألياف هنا، لا تطرحها شجرة، بل نبات يفترش الأرض. ويتحدّثون عن تفصيل آخر يخصّ شجرة غادير: إذا كسرت غصناً منها، يسيل منه حليب، وإذا قطعت منها جذراً، يخرج منه سائل أحمر اللون. وهاأنذا قد تحدّثت عن غادير بما فيه الكفاية.

11- يبلغ عدد جزر الكاسيتيريس 10 جزر؛ وهي تقع قرب بعضها بعض في عرض البحر إلى الشمال من ميناء الأرتابريين. إحداها صحراوية خاوية، أمّا الأخرى فهي مسكونة بأناس يرتدون معاطف سوداء، وجبب طويلة تصل حتّى الكعب، ويحزمون صدورهم، ويتجوّلون حاملين عصياً، كما تفعل إلهات الانتقام في التراجيديات. ويعيش هؤلاء حياة بدوية، ويقتاتون على ما تعطيه قطعانهم. وعندهم مناجم قصدير ورصاص؛ وهم يبادلون بهذين المعدنين وجلود حيواناتهم، الأواني الفخارية، والملح، والمصنوعات النحاسية التي يحملها إليهم تجار البحر. وفي الأزمنة الماضية كان الفينيقيون وحدهم يديرون هذه العمليات التجارية من غادير، وكان هؤلاء قد نجحوا في إخفاء الطريق إلى هناك عن الآخرين. ولكن عندما انطلق الرومان يوماً يلاحقون قبطان إحدى السفن الفينيقية، لكي يعرفوا مواقع الموانئ التجارية، رسا هذا الأخير بسفينته في مكان ضحل، فأهلك بذلك ملاحقيه. أمّا هو فقد نجا عائماً على حطام سفينته المحطمة، فكافأته حكومة بلاده بخمسة أضعاف ثمن حمولة سفينته التي هلكت. ومع ذلك نجح الرومان في اكتشاف هذه الطريق البحرية بعد عدد من المحاولات. وبعد أن توجّه بوبليوس كراسوس إلى هناك ورأى أن المعادن تستخرج من عمق بسيط، والناس هناك مسالمون، أشاع الخبر من فوره لكلّ من يريد أن يدير معهم تجارة وراء البحر، مع أن هذا البحر أعرض من ذلك البحر، الذي يفصل بريطانيا عن القارّة. وفيما يتعلّق بإيبيريا والجزر الواقعة أمامها، قد قلت ما يكفي أيضاً.